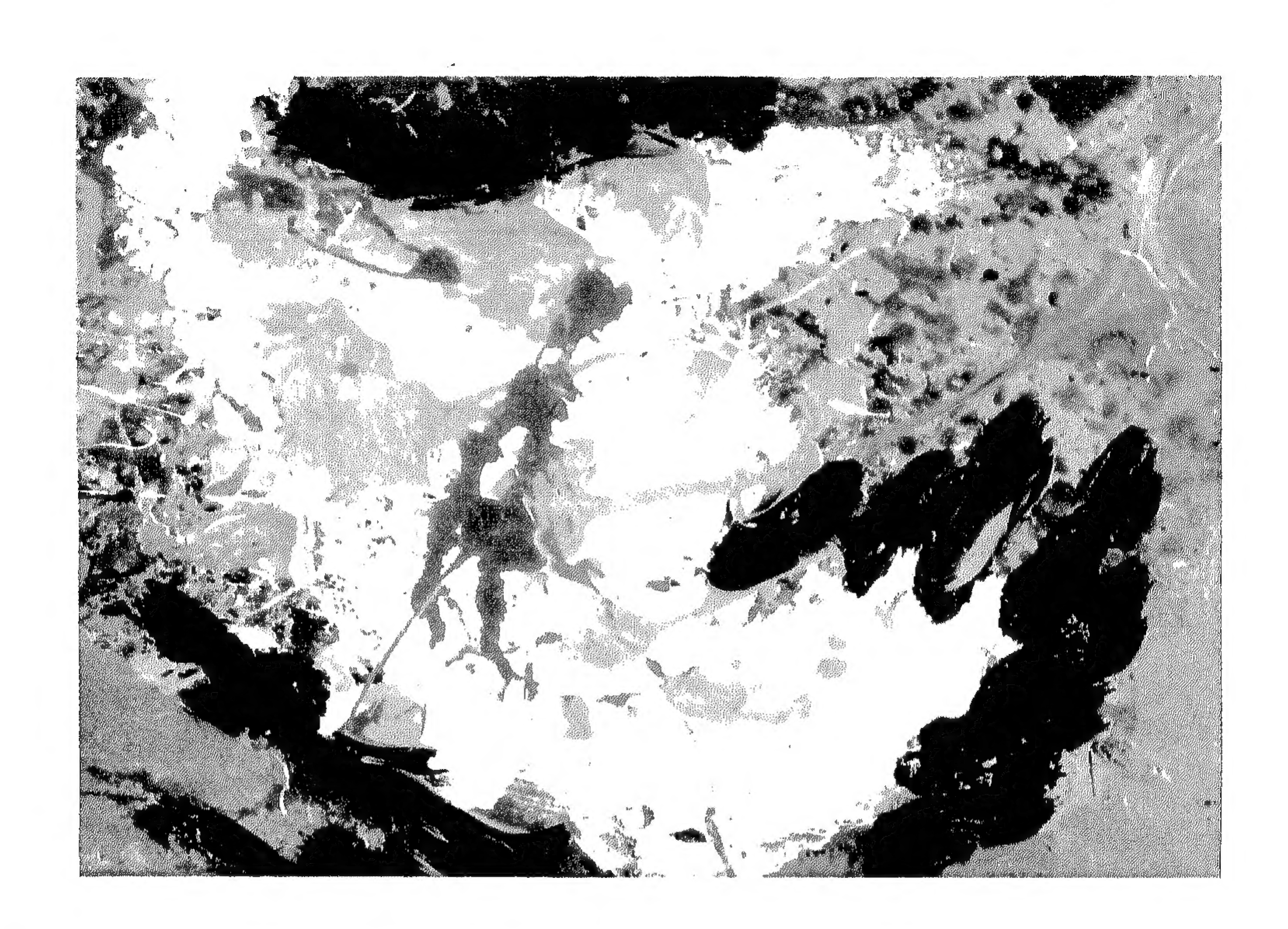
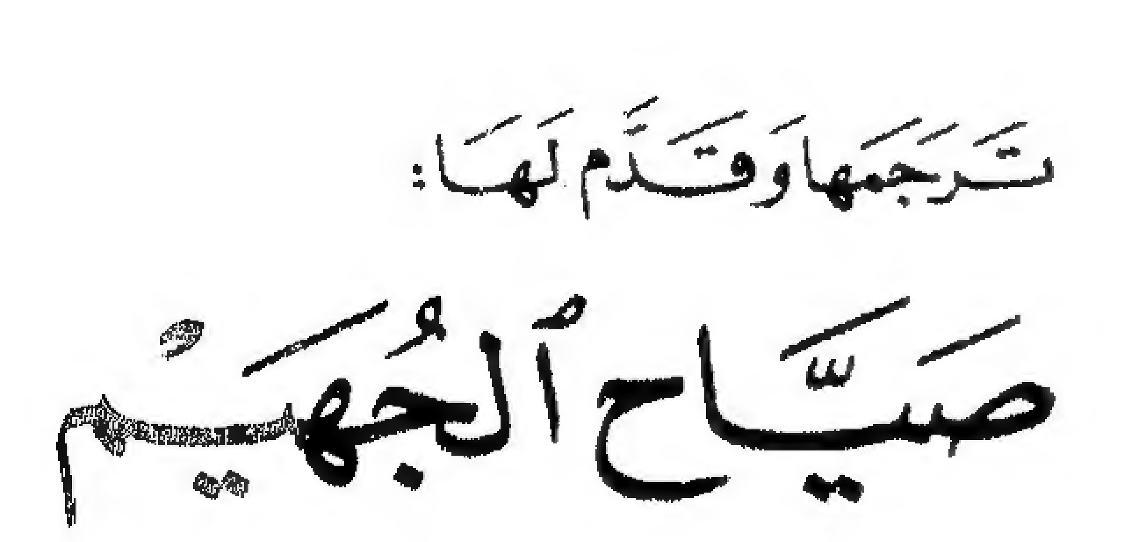
موباسان



«إيفيت» وقصص أخرى



ترجمها وقدم لها:

صيّاح الجهيم

قصص عالمية

الاشراف الفني زهير الحمو

موباسان

«إيفيت» وقصص أخرى

رواية



ترجمها وقدم لها:

صياح الجهيم

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق 1997

العنوان الأصلي للكتاب:

YVETTE

GUY de Maupassant

FLAMMARION

ايفيت وقصص أخرى : رواية = Yvette/ موباسان؛ ترجمها وقدم لها صياح الجهيم . - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٧ . - ٢٠٠ص؛ ٢٤سم . - (روايات عالمية؛ ٦١).

١- ٨٤٣ ف م و ب إ ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤-موباسان ٥- الجهيم ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٦٥٦/ ١٠/ ١٩٩٧

روايات عالمية

« ٦١ »

المقدمة

مقدّمة لمجموعة موباسان القصصية «ايفيت»

بقلم: صياح الجهيّم

الموتُ ماثلٌ في معظم قصص هذه المجموعة التي تتألف من قصة طويلة هي ايفيت وبها سُمّيت المجموعةُ- ومن ستّ قصصٍ قصيرة أو أقاصيص: الموتُ انتحاراً، في قصّته «نزهة» إذ يشنق نفسه على شجرةٍ في غابة «بولونيي» ذلك الموظفُ البائس؛ والموتُ محاولة انتحار في قصته «ايفيت» وفيها تحاول الفتاةُ «ايفيت» أن تقتل نفسها بالسم؛ والموت قتالاً في قصته «أفكار العقيد»، وذلك في حرب ١٨٧٠ بين بروسيا وفرنسا؛ والموتُ تقتيلاً في قصته «التركي النذل»، حين يعمد ذلك التركيُّ النذل في الفرقة الأجنبية الفرنسية في الجزائر إلى تعذيب قبيلة عربية جزائرية وتقتيل بنيها.

وإذا لم يكن الموتُ ماثلاً في القصة فهو الموتُ انتظاراً: وقد يبدو وكأنه الحلُّ الذي لاحلّ غيره لمشكلة مستعصية على الحل الحقيقي.

ومثالُها قصةُ «العودة» المشهورة. فبعد أن غاب البحارُ المسكين «مارتان» عن زوجته وولديه نحو عشرين عاماً في بلادٍ جرّه إليها غرقُ سفينته، تزوّجت امرأته من آخر حين فقدت الأمل في عودة زوجها الأول، وأنجبت طفلين. وإذا بالزوج الأول يعود إلى بيته فيجد زوجته في هذه الحال. ماذا يفعل؟ الموتُ وحده يمكنه أن يحلّ هذه المشكلة.

وفي قصته «بيرت»، وهي فتاة متخلّفة تخلّفاً عقلياً شديداً حاول الطبيبُ وأهلها إنقاذها من تخلّفها بتزويجها وإيقاظ أمومتها، فإذا

بزوجها يعافها فتجنّ وتغدو سجينة حجرتها، ويغدو الموتُ أجدر بها من هذه الحياة الحيوانيّة.

ومثلُ ذلك قصةُ «اللقيط» التي تروي أطرافاً من حياة تلك المرأة التي حملت سفاحاً ووضعت طفلها خفيةً- كل ذلك وزوجها غائب- ولم تر ذلك الطفلَ إلا يوم ولادته، ثم بحثت عنه بعد أربعين عاماً ووقعتْ عليه فإذا هو فلاّحٌ فظٌّ، قاسٍ، أين منه تلك الصورة البريئة التي حملتها عنه. إذ ذاك تعود إلى بيتها وفؤادُها فارغٌ، وفي فمها مرارةٌ شبيهة بمرارة الموت.

بيد أن الموت في هذه القصص يخلو من تلك الهالة الشجية، الحزينة، أو الدرامية الفاجعة. الموت هنا عاديٌّ، مبتذلٌ، يمرّ عليه الراوي والقارىء والذين شاركوا فيه- في الأعمّ الأغلب- كما يمرّون على غيره من الأحداث. هو شيءٌ كسائر الأشياء. وهو يخلو من عنصر الإدهاش أو الاستغراب. وكأنه الحقيقةُ البديهيّة الباقية بين حقائق أخرى قد يشوبها اللبسُ.

بل إن الموت قد تلفّه البسمةُ الهادئةُ وذلك حين تُساق القصةُ التي تحتوي الموتَ للتسلية، كما هي الحال في قصة التركي «النذل»، أو حين تُساق القصة على أنها طرفة تُروى، وحينئذٍ يكون الإطارُ الذي يؤطّر الموت هو المهم. ففي قصة «أفكار العقيد» يمرّ القارىءُ على موت طائفة من جند الأعداء كشيءٍ مساعدٍ على إنعاش الطرفة المسلّية. ويؤكد ذلك ما يقوله العقيدُ للفتاة التي انقذها الجندُ الفرنسيون وحملوها على محملٍ عملوه لها من أغصان الشجر ومن معاطفهم، حين استيقظت على صوت الرصاص: «ليس هذا بشيءٍ ذي بال، فقد قتلنا اثني عشر جندياً بروسياً».

وفي ايفيت تتحوّل محاولة الانتحار إلى لعبةٍ مسلّية ومضحكة – وإن كان الضحكُ قاتماً صفراوياً–، لعبةٍ تُمثّل في النهاية لاجتذاب الحبّ والعطف.

وسواء أكان الابتسام نابعاً من الشخصية أم من الموقف والإطار فإنه يومىء إلى واقعية موباسان الذي أراد أن يصور الحياة بجدّها وبهزلها، أو بالأحرى بهزلها القليل في جدّها القاتم، أراد أن يصوّر معاصريه منّحياً حياته الشخصية ما أمكن. وكان يقول إن حياة الرجل الشخصية وصورته لاتخصّان الجمهور. لكننا إن لم نستطع أن نُلمّ بجزئيات حياته من خلال قصصه، إلا أننا نستطيع أن نكتشف محرّكات وجدانه، ومرتكزات فكره، وألوان السلوك التي يؤثرها. فما الأفكار أو النظرات التي تحملها إلينا هذه القصص؟

علينا أن نستشفّها استشفافاً وأن نستخلصها استخلاصاً، لأن موباسان ينأى عن التفكير المجرّد في قصصه. وكما أن الحياة لاتنبئنا بالحقائق المجرّدة فيما تعرضه علينا من أحداث ومن أشخاص ومن علاقات، وإنما نصلُ إليها بأنفسنا، و على قدر استطاعتنا، فكذلك الأمرُ لدى موباسان. إنه يدع الأشياء والأحداث والشخصيات تتكلم، تَرْوي وتُروى دون أن يبدو عليه أنه يتدخّل فيها سوى أنه اختارها– وكأن الاختيار وحده لايكفي لابراز رؤية الإنسان للوجود–.

وأولها هذا التشاؤم العميق الذي هو مهاد قصصه بالرغم من الابتسام الذي نلقاه في قلب المحن. التشاؤم بشتى ألوانه: إن الغلبة للشر، لجميع أنواع الشر، الشر الميتافيزيكي والشر الفردي والشر الاجتماعي: إن أم «ايفيت» تتحوّل من طاهيةٍ إلى مومسٍ بيتُها موئلٌ للدعارة والقمار، على مرأى من ابنتها. وهي تسوّغ ذلك بظروف

الحياة المرهقة التي لاترحم والتي تضطر المرأة، في هذا المجتمع الظالم، إلى صنوف الانحراف، ثم يغدو الانحراف طبيعةً ثانية فيها. - إن الناس يقتّل بعضهم بعضاً ظلماً وتحت سلطان الغرائز. - إن الانسان لعبةٌ بين، يدي الأقدار التي لانرى لها وجهاً معقولاً. - إن الناس قُساةٌ، متقاطعون لايتقاربون، متدابرون لايتراحمون، منغلقون لايتكاشفون، وكلهم يعيش في وحشة مثل وحشة الموت. وإذن فما معنى هذه الحياة التي نحياها؟

ما معنى هذه الحياة التي ليس فوقها أووراءها شيء، والتي تؤول إلى الشيخوخة والعجز، والموت؟ وإذا كان الإنسان قد جاء هذه الحياة بغير مشيئته فهو يستطيع أن يخرج منها إذا شاء. بالانتحار؟ يبدو أن موباسان لايجد ضيراً في الانتحار. وقد حاول هو نفسه الانتحار في كانون الثاني ١٨٩٢ قبل أن يدخل المصح العقلي الذي مات فيه. وهو في هذه القضية- قضية الانتحار- يختلف عن شوبنهاور الذي يُجمع النقادُ على أن موباسان تأثّر به في تشاؤمه- وإن كان موباسان قد وجد في فلسفة شوبنهاور مؤيداً للتشاؤم المنبعث من حياته، وإن كنا أيضاً لانكاد نعرف شيئاً عن حياة شوبنهاور الحميمة- إذ يعتقد شوبنهاور أننا عبيد الشهوات، الشهوات التي هي آلام، ألم الحاجة التي لم تُلبَّ وألم الضجر بعد أن تُلبَّى- والحاجات الجديدة إنما تنبعث من رماد الحاجات التي سبقتها- فهل ينبغي للمرء أن يتخلّص من حياة العبودية هذه؟ يجيب شوبنهاور أنْ لا. لأن الذي ينتحر إنما ينتحر لأنه متعلّق بخيرات هذا العالم. ولأنها أفلتت منه إنما ينتحر. إنه غير راضٍ عن حياته لا عن الحياة. إنّ إرادة الحياة التي لا تُقاوم ولاتُعقل هي التي تؤكّد نفسها في يأسه.

وكان باسكال يقول: جميعُ الناس يبحثون عن السعادة حتى الذين يشنقون أنفسهم.

بيد أن موباسان يتفق مع شوبنهاور في جانب إنساني هو الرأفة. موباسان رؤوف بالبائسين والبسطاء والمظلومين. نجد ذلك على نحو غير مباشر في قصته «العودة». وكذلك كان شوبنهاور يرى أن الرأفة هي القادرة فعلاً على تحويل الأنانية إلى محبة.

لقد ليمَ موباسان- لامه أندريه جيد- على خلوّ أدبه من رسالة يؤدّيها. والحقيقة أن القارىء لقصص موباسان يحسّ لأول وهلة بغياب الدفء الإنساني- في الأغلب- وبغياب الأفكار العظيمة، وأن الكثير من قصصه إنما تَقْصد إلى التسلية، بل إن الكثير من أوصافه الواقعية للظلم أو الخوف قد تثير في القارىء قلقاً ثقيلاً يحول في بعض الأحيان دون التعاطف الروحي. لكننا حين نكثر من قراءته نشعر إلى أي مدى أحبّ هذا الرجل الحياة، وأحب الحبَّ، وملأ قصصه بالكثير من الصور الإنسانية.

موباسان واقعي قبل كل شيء. هو ابن فترة زمنية محدّدة. وقد تربّى أدبياً على يدي «فلوبير»، معلم الواقعية. غير أن هذه الواقعية ليست في اختيار الموضوع وفي الموضوع فحسب، وإنما هي أيضاً في طريقة التناول.

وهنا ينبغي الإشارة رأساً إلى أن هذا الرجل الذي اختلّ عقلياً في أواخر حياته ولم يَصْحُ من غفوته العقلية تلك حتى موته وهو لم يكد يتجاوز الأربعين إلا قليلاً- وُلد سنة ١٨٥٠ ومات سنة ١٨٩٣- إن هذا الرجل حافظ في كل ما كتب على المعقولية والمنطق ومشاكلة الواقع سواء في نقل الأحداث وفي سيرها أم في بناء الشخصية.

وقد عرض في مقدّمة «بيير وجان» أفكاره الأدبية ورسم حدود تصوّره للواقعية، مما يفيدنا في فهم مجموعته القصصية هذه.

فهو يميّز بين نوعين من الروايات: روايات الحبكة التي تتركّز على عدد من الترتيبات الماهرة للأحداث لكي نفضي إلى الحل، والروايات الواقعية التي تقدّم صورةً دقيقة للحياة. لكن ذلك لايعني أن تصوّر الواقع تصويراً فوتوغرافياً. إن ثمّة اختياراً يفرض نفسه على الروائي. فالحياة تتألف من أشدّ الأشياء اختلافاً وتبايناً، ولاتتالي فيها ولاتسلسل، وهي ملأى بالكوارث المتناقضة التي لاتفسير لها ولا منطق فيها، وحينئذٍ لابدّ للفنان من اختيار موضوعه ومن اختيار التفاصيل المميّزة النافعة له ونبّذ ما سواها من المصادفات والتفاهات. وهو يضرب مثالاً على ذلك: إن عدد الناس الذين يموتون كل يوم بالحوادث كبيرٌ على الأرض. فهل يجوز لنا أن يُسقط آجرّةً على رأس شخصيّة رئيسيّة أو أن نرمي بها تحت عجلات عربة في وسط القصة بحجة أننا نريد أن نجعل للأحداث العارضة نصيبها في القصة؟

الحياة لاتميّز بين ماهو هام وماهو مبتذل، أما الفنّ فيقوم على الانتقاء والنظام وحسن الانتقال وحسن التأليف، وإلقاء الضوء على الأحداث الرئيسية، وإعطاء كل حدث ما يستحقه من مكانة لكي تُحدث القصة ذلك الإحساسَ العميق بالحقيقة الخاصة التي يريد القاص إبرازها.

على الواقعيين أن يعطوا عن الحياة رؤية أعظم فتنةً وكمالاً وإقناعاً من الواقع نفسه.

إضافة إلى هذه الأفكار التي غدت تقليدية، يشير موباسان إلى

ضرورة توافر أشياء ثلاثة في القصة، وهي خلاصة تفكيره في فنّه، وقد غدت من بعده تقليدية، مدرسية، أيضاً.

وأولها الجو: وهو عنصر هام في قصص موباسان لأنه يلفّ الأحداث والشخصيات ويختلط بها وقد يكون محرّكاً لها. والجوّ هو الحيِّز المكاني، وهو الوسط المادي والمعنوي الذي تتحرّك فيه الشخصيات، وهو الطبيعة. وقد تُسهم اللغة المحلّية في إشاعة ذلك الجو أيضاً.

الجوّ في قصة «العودة» هو البحر الذي يلطم الشاطىء، والقرية التي تتدفأ في طيّة الوادي، والبيت الصغير الحقير الذي تصلح فيه امرأة شبكة صيد، والحديقة التي هي بعرض المنديل. إن هذا الجو هو الذي يُؤذن بنوع الشخصيات، ونمط الحياة التي يحياها هؤلاء الفقراء، وهي تُهيّئ القارىء لقبول ما سيأتي.

وقد يكون الجو مبثوثاً في ثنايا القصة يُقدَّم تبعاً لنمو الحدث ولبروز الشخصية. إن قصة إيفيت تبدأ بالحديث بين الشخصيتين « دي سيرفيني» و«سافال» فترتسم ظلال الوسط الذي يعيشان فيه والوسط الذي يقصدان إليه، لكن الظلال الأخرى المتمّمة أو المصحّحة ترتسم تباعاً.

والشيء الأساسي في ذلك ألاّ تُقصد الأوصاف لذاتها، ألا تخرج عن الخط الروائي، أن تُسهم في الإنارة والكشف.

وللطبيعة مكانةٌ خاصة في قصص موباسان. وكثيراً ما تُعرض من وجهة نظر الشخصية المعنيّة في القصة، أو منسجمة معها ومع الحدث، وهي تمتد من الأوصاف الدقيقة المحدّدة للمكان إلى الأوصاف الشاعرية

التي تنسلّ من خلالها النبرةُ الشخصية للمؤلّف: الماءُ المزروع بالنجوم، الزورق الذي يوقظ النجوم الغافية...»

الشيء الثاني يتعلق بملاحظة الواقع ملاحظة دقيقة، واختيار ما له دلالته من الجزئيات، واكتشاف الجانب الذي لم يره أحدٌ من قبل، ذلك أننا كثيراً ما ننظرإلى الأشياء عبر ذكرياتنا التي أخذناها ممّن رأوْا هذه الأشياء قبلنا. وفي أقل الأشياء مجهولاتٌ، فليعثرْ الفنّان عليها وليميّز الشيءَ الذي يصفه عن كل ما سواه. بيد أن تلك التفاصيل لاتكتسب كامل قيمتها إذا لم تنتظم فيّ وحدة فنيّة هي ما سُمّي فنّ المجموع أو الإخراج وهو الشيء الثالث الأهم في قصص موباسان. هو فنّ النسب بين أجزاء النص، وهو اختيار الموضع المناسب لكل جزئية، وهو الشعور بالضرورة الفنية. فليس شيء بجدير أن يدخل النصٌ القصصي إلا إذا كان ذلك النصّ لايستغني عنه وإلا إذا حُذف اختلّ النصٌ. كل تفصيل ينبغي أن يكون وثيق الصلة بما حوله. ورب مفردةٍ أو جملة أو وصف لايُدرى لها وجهٌ لأول وهلة، لكنها لاتلبث أن تكشف عن صلتها العميقة بما حولها. ونحسّ حينئذ بترابط تلك الخيوط بعضها ببعض.

ولابدّ من تحليل متأنٍ لقصص موباسان- وإن لم تكن جميعاً على سويّة واحدة- لايضاح عناصر المعماريّة الفنيّة التي غدت تقليدية بعده. إن قصة «العودة» تتألف من أجزاء هي:

أ - جو القرية والطبيعة الذي يكتنف ذلك البيت الفقير، والذي يسهم في انبعاث القلق.

ب - الخوف المتصاعد إزاء الغريب وقد برع موباسان في تصوير الخوف.

حـ- رجعة سريعة إلي الوراء تتناول ما ضي المرأة.

د - تحول الخوف إلى دهشة عندما يلتقي الزوجان.

هـ- تحول الدهشة إلى أزمة مستعصية.

يُلاحظ على هذه القصة أنها ظلّت دون حلّ. لقد انتهت بتواجه الزوجين القديم والجديد. وهذا اللاحلّ أعظم واقعيّةً وتأثيراً من أي حل آخر. أما الواقعيّة فهي تلك المطابقة بين القصة والحياة، لأن الكاتب لايريد أن يتدخّل في مسار القصة ويفرض عليها حلاً آخر غير مقنع. وأما التأثير فلأنه قد انضاف إلى عذاب تلك الأسرة التي عانت الحرمان عذابٌ آخر أشدّ إيلاماً.

لمَ اختار المؤلفُ للرجعة السريعة ذلك الموضع؟ لأن الشك أخذ يساور المرأة والرآوي لا يُريد أن يصرح به بل أن يومىء إليه من خلال هذه الرجعة.

بعض القصص تُشبه- من بعيد- في بنائها بناءَ المآسي الكلاسيكية: إذ تبدأ والأزمة مستحكمةٌ، والزمن قصير، ولكنه يتيح للأزمة أن تنمو وتبلغ ذروتها ثم تنحلّ: وقصة «ايفيت» تذكّر بمأساة «بيرينيس» لراسين. فهي تبدأ بعرض نتعرف فيه على الشخصيات والموضوع ثم لايجري بعد ذلك شيءٌ تقريباً سوى محاولة الانتحار التي تتحول إلى لعبة من لعب الحب الأبدية.

وقد تتخذ القصةُ شكل تجربةٍ تُروى في مسيرتها الزمنية، وذلك في «بيرت» التي تروي مسيرة تلك الفتاةُ المتخلّفةُ إلى الجنون.

يحرص موباسان في هذه القصص على خلق الشخصية المتميّزة

جسدياً ونفسياً. وهو يستطيع بلمسات سريعة أن يخلق النموذج البشري، كذلك العقيد العابد للنساء والذي يؤدي أقسى الواجبات وهو يمزح.

ولايلجأ موباسان إلى تلك التحليلات البسيكولوجية العريضة، لكنه يَعْرض الشخصية أمامنا وهي تتحرّك وتتصرف وتتكلم وتحادث الآخرين، ويلفّها بجوّها، وعلى القارىء أن يركّب تلك التفاصيل ويستخرج منها النموذج البشري أو الشخصية البشرية. ولعل أجدر الشخصيات بالوقوف عندها هي شخصية قصته «نزهة» وفيها صوّر الراوي - والراوي الغائب هو المؤلف - حياة موظف قضى أربعين عاماً في عمله، في غرفة منتنة، رطبة، معتمة. أما في بيته فكان يعيش حياةً زريّةً تتكرّر فيها الحَركاتُ ذاتها منذ الفجر حتى أواخر الليل وهو يعيش بمرتّب زهيد لايتيح له أن يحيا حياةً هانئةً مستقرّة. وتمرّ منذ مقدمة القصة جملٌ بريئة وعادية تؤذن بشيء ما دون أن نحدد ما هو، فإذا انتهينا من قراءة القصة انكشف لنا ما فيها من انذار، ومنها: «إن ملكة الأحلام التي يحملها كلٌّ واحد في ذاته لم تنمُ وسط تفاهة مطامحه...»، ومنها أنه: «كان يخرج كل يوم ويشتري هلاليّةً من مخبز «هور» الذي عرف أحد عشر مالكاً له دون أن يفقد اسمه». والجملة الأولى تبرز هذه الفكرة وهي أن الحياة إذا خَلَتْ من الحلم لم يبق للانتظار من مسوّغ؛ والجملة الثانية تدل على جريان الزمن الذي يلفّ الناسَ بالموت، وتكرار هذا الزمن، أو بالأحرى تكرار هذا الإنسان لذاته.

في العرض الذي يؤلّف مقدّمة القصة تجمعت العناصرُ التي ستسمح بما سيسلّم به القارىء فيما بعد وهي الحاضرُ السيّء الذي لامستقبل له، بل الحاضر الذي هو ماضٍ لأن الأيام التي عاشها تتشابه

تشابهاً إلى حدود الغثيان، والشعورُ بالوحدة والوحشة إذ لاأهل له ولا امرأة ولا أولاد، والاحساسُ الحادُّ بمرور الزمن أو بالكبر المؤدي إلى الموت.

ويخرج هذا الموظفُ في إحدى الأمسيات - ونادراً ما يخرج- فيبهره بريق الشمس الغاربة ويجتذبه، فيخطر له أن يمرّ بدكان خمور، فيتناول عشاءه ويتناول شيئاً من نبيذ «بوردو»، فتنتعش نفسُه ويمضي إلى غاب «بولوني»، فيرى مواكب العاشقين التي يفيض العشقُ من حولها، وتدنو منه امرأة تراوده عن نفسه فيأبى، وتأتي ثانية فيأبى، لكن مكبوته أخذ ينفجر، فيبصر شقاء وجوده بعينٍ جديدة: شقاء الماضي والحاضر والآتي: الشيخوخة البائسة في تلك الغرفة البائسة.

لم يحسّ أحدٌ بما يجول في نفس الرجل لأن الناس- في رأي موباسان- منغلقون، لايلوي أحدٌ على هموم الآخر.

ونُفاجأ بموته، بشنقه نفسه، لكننا لن نلبث أن نراجع النص، أو ما علق بأنفسنا من النص، ونشعر أن الكاتب قد شرح لنا، وهو يروي ببساطة شفّافة موجزة حياة ذلك الرجل، الدوافع التي قد تؤدي بأمثاله إلى الموت.

نُشرت هذه القصة سنة ١٨٨٤، وقد سبقت بنحو عشر سنوات كتاب دوركهايم المعروف «الانتحار» ١٨٩٣ الذي يرى فيه أن الانتحار مثلما ينشأ عن كثير من المؤثّرات العائلية والاجتماعية والدينية... ينشأ أيضاً عن الفراغ الاجتماعي حول الفرد. وهذا الفراغ هو الذي يبرز في قصة موباسان.

الشخصية هنا قُدِّمتْ من وجهة نظر واحدة هي وجهة نظر

الراوي. يبد أن هناك شخصية تُقدَّم من وجهات نظر شتّى، فيلتبس علينا أمرُها– إلى حين– ويصعب علينا التنبؤ بأفعالها الآتية. والمقصود بذلك شخصية «إيفيت». فعاشقها الذي يعرف بيئتها حقّ المعرفة يحار في تفسير مواقفها أهي ساذجة بريئة أم مجربة خبيرة بشؤون الرجال؛ وأمها تتعجب من سلوكها: أمن الممكن أن تصل بها البراءة إلى الحد الذي تتصوّر معه أن ذلك الرجل– الذي تعرفه هي أيضاً حق المعرفة– سيتزوجها؛ والفتاة تجهل نفسها أيضاً: لقد قرأت كثيراً من الروايات وأرادت أن تقلّد بطلاتها، فحاولت أن تنقذ أمها من براثن الرذيلة، ولما خاب سعيها عزمت على الانتحار. ثم إذا بها عاجزة عن إنقاذ نفسها من براثن ذلك العاشق لصباها.

تبدأ هذه المجموعة القصصية بقصة «ايفيت» التي أراد لها المؤلف أن تكون باسمة، وتنتهي بقصة «بيرت» تلك الفتاة المتخلفة التي تعيش حياة أقرب إلى الحيوانية. وفيما بين ابتسامة ايفيت وجنون «بيرت» تجري الحياة زاخرة بشتى أنواع القلق والوحشة والقسوة. لكن كان يوشّحها بين الحين والحين شعاعٌ مؤنسٌ من الطبيعة والمرأة والأمومة والرأفة والفن.

إيـفـيـت

- ١ -

قال «جان دي سيرفينيي» لِـ«ليون سافال» عند خروجهما من «كافيه ريش»:

- سنذهب مشياً على الأقدام، إن شئت. فالطقس أجملُ من أن نستقلّ عربةً.

فأجاب صديقُهُ:

- لا أطلب أفضل من ذلك.

وأردف «جان»:

لم تكد الساعةُ تبلغ الحادية عشرة، وسنصل قبل منتصف الليل بكثير، لنذهبْ إذن بتؤدة.

كانت جمهرة مضطربةٌ تعجّ بها الجادة، هي جمهرة ليالي الصيف التي تتحرك، وتشرب، وتضجّ، وتسيل كالنهر، مفعمة بالهناء والفرح. ومن مكان إلى آخر، كان أحد المقاهي يُلقي ضياءه العريض على جماعة الشاربين الجالسين على الرصيف أمام الطاولات الصغيرة المغطّاة بالزجاجات والأقداح، المربكة لمرور جمهورها المستعجل. وعلى الشارع، كانت العرباتُ ذوات العيون الحمراء والزرقاء والخضراء، تمرّ فجأة عبر النور الساطع للواجهات المضاءة، مظهرة لثانيةٍ شبح الحصان الهزيل الذي يخب، وجانباً مرتفعاً من وجه الحوذي، وصندوق العربة العاتم. أما عربات «الأوربيين» فكانت تُحدث بقعاً مضيئة وسريعة بلوحاتها الصفراء التي يضربها النور.

كان الصديقان يسيران بخطاً بطيئة، سيجارٌ في الفم، وبكامل ثيابهما، والمعطف على الذراع، وفي العروة زهرة، والقبّعةُ مائلةٌ قليلاً، كما تُلبَس أحياناً، بلا مبالاة، إذا كأن العشاء حسناً، والنسيم فاتراً.

ارتبطا منذ أيام الدراسة بعاطفة وثيقة، مخلصة، متينة.

كان «جان دي سيرفينيي» قصيراً، ممشوقاً، على شيء من الصلع والهزال، أنيقاً جداً. مجعّد الشاربين، صافي العينين، رقيق الشفة؛ كان أحد هؤلاء الرجال الليليّين الذين يبدون كأنهم ولدوا وكبروا على الجادة؛ كان لايتعب وإن كان مظهره يدل على الإنهاك، وكان صلب العود وإن كان شاحباً، أحد هؤلاء الباريسيين النحيفين الذين منحتهم الرياضةُ والمبارزة والحمّامات الباردة والساخنة قوة عصبية ومصطنعة. كان معروفاً بتهتّكه مثلما كان معروفاً بنباهته وثروته وعلاقاته، وبذلك الأنس واللطف ورقة الحاشية الخاصة ببعض الرجال.

كان باريسياً حقيقياً خفيفاً، متشككاً، متبدلاً، قابلاً للانجذاب، قوياً ومتردداً، قادراً على كل شيء وعلى لاشيء! أنانياً وكريماً باندفاعات يُنفق عائداته باعتدال ويلهو مع المحافظة على صحته. كان غير مبالٍ ومشبوب العاطفة، يترك نفسه على سجيّتها ويستدرك نفسه أبداً، يصارع غرائز متناقضة فتصرعه ويستسلم لها جميعاً لينصاع، في نهاية الأمر، لعقله، عقل رجلٍ منغمس في ملذات العيش ماهر بها، يقوم منطقهُ المتقلّب على اتباع الرياح وعلى انتهاز الفرص دون أن يكلّف نفسه مهمّة خلقها.

أما رفيقه «ليون سافال»، الغنيّ أيضاً، فكان مارداً من أولئك المردة الرائعين الذين يدفعون النساءَ إلى الالتفات في الشوارع. إنه يوحي بفكرة نُصْبٍ جُعِلَ إنساناً، نموذجاً لعرقه، مثل تلك الأشياء النموذجية التي تُرسل إلى المعارض. كان مفرط الجمال والطول والعرض والقوة، ولاعيب فيه إلا الإفراط في كل شيء، الافراط في المزايا ولقد تعرّض لأهواءٍ شتّى.

سأل، بينما هما يصلان أمام «الفودفيل»:

– هل أخطرتَ تلك السيدة التي ستقدمني لها؟

أخذ «سيرفينيي» يضحك .

- إخطار المركيزة «اوباردي»! وهل تُخطر حوذيّ العربة العامة أنك ستركب عربته في زاوية الجادّة؟

حينئذ سأله «سافال» وقد حار قليلاً:

- ومَنْ تلك المرأة بالضبط؟

أجاب صديقه:

- امرأةٌ حديثة النعمة، غنيّةٌ مشبوهة، فاجرة فاتنة، لايُدرى من أين خرجت، ولا كيف ظهرت ذات يوم، في عالم المغامرين، ولاكيف استطاعت أن تبرز. وماذا يهمّنا من ذلك، على كل حال. يقال إن اسمها الحقيقي، اسمها كبنتٍ، لأنها ظلّت بنتاً من جميع الوجوه، إلا من جهة الطهارة، هو «أوكتافي باردان» ومن هنا «أوباردي»، مع الاحتفاظ بالحرف الأول من الاسم وإلغاء الحرف الأخير من الكنية.

«زد على ذلك أنها امرأة محبّبة إلى النفس، وستُصبح أنت عشيقها، لامحالة، ببنيتك الجسمية. لايُدخَل «هرقل» إلى «ميسالين» دون أن يَحْدُث شيء ما. بيد أني أضيف أنه إذا كان الدخول إلى هذا المسكن مباحاً، كما هي الحال في الأسواق، فيليس الداخل مجبراً بدقة أن يشتري ما يُباع في المنزل. ففيه يُدار الحبُّ والقمار، لكن لا أحد يجبرك على هذا ولاذاك. الخروج أيضاً مباح.

«استقرّت في حيّ «النجمة»، وهو حيّ مشبوه، منذ ثلاث سنوات، وفتحت صالوناتها لزبد القارات الذي يَفدُ إلى باريس ليمارس مواهبه المتعددة والمجرمة.

كنتُ أذهب إلى منزلها! كيف؟ لم أعد أدري. ذهبتُ إليه، كما نذهب جميعاً إليه، لأن الناس يلعبون فيه، ولأن النساء فيه ميّسراتٌ ولأن الرجال لؤماء. أحبُّ عالم النصّابين هذا بزخرفاته المتنوعة، وكلّهم أجانب، وكلّهم

نبلاء، وكلّهم أصحاب ألقاب، وكلهم مجهولون من قبل سفاراتهم ماعدا الجواسيس. كلهم يتحدثون عن الشرف بصدد الأحذية، ويستشهدون بأجدادهم بغير مناسبة، ويروون حياتهم بكل مناسبة، وكلهم نفّاجون، كذابون نشّالون خطرون مثل ورقهم، خدّاعون مثل أسمائهم، مقدامون لأنه لابدّ من ذلك، على غرار القتلة الذين لا يستطيعون أن ينبهوا الناس إلا إذا عرّضوا حياتهم للخطر. إنهم ارستقراطية السجن، في نهاية الأمر.

إني أعبدهم. فهم يشوّقون إلى الدخول بينهم ويغُرون بالتعرّف إليهم وهم ممتعون وأنت تستمع إليهم، خفاف الروح، غير مبتذلين أبداً كالموظفين الفرنسيين. نساؤهم حسانٌ دائماً. مع نكهة طفيفة من الغنج الأجنبي، ومع سرّ حياتهن الماضية، حياة ماضية ربما قضينْ نصفها في إصلاحيّة. ولهنّ على العموم العيون البديعة والشعور التي لامثيل لها، والبنية الجسدية الصالحة للاستخدام، والملاحة المُسكرة، والإغراء الذي يدفع إلى الجنون، والسحرُ الفاسدُ الذي لايُقاوم! إنهن الفاتحات على غرار قطاع الطرق، والكواسر، وإناث الطير الجارحة الحقيقية. وأنا أعبدهن أيضاً.

«المركيزة، أوباردي» نموذجٌ لهؤلاء النساء الفاجرات الأنيقات. إنها ناضجة وحسناء أبداً. ساحرة ورشيقة، ونحسّ بها فاسدة حتى مخ العظام. يستمتع الناسُ عندها كثيراً، فيقامرون ويرقصون، ويتناولون عشاءهم... ويفعلون عندها كل ما يكوّن لذّات الحياة المدنية الراقية.»

سأل ليون سافال:

- هل كنتَ عشيقاً لها أو هل أنت عشيق؟

- لم أكنه، ولستُ كذلك، ولن أكونه. وإنما أذهب أنا، إلى البيت من أجل البنت.

- آه! ولها بنت؟

- تسأل عن بنتها! آيةٌ من الآيات، يا عزيزي. إنها اليوم الجاذب الرئيسي في ذلك الكهف. وهي طويلة، رائعة، في ذروة النضج، ابنة ثمانية عشر عاماً. شقراء بقدر ما أمها سمراء، فرحةٌ دائماً، للحفلات، ضاحكة دائماً بملء فمها، راقصة باندفاع. مَنْ سيظفر بها؟ مَنْ ظفر بها؟

لاندري. نحن عشرة ننتظر، نأمل.

«إن بنتاً كهذه بين يدي امرأة كالمركيزة، ثروةٌ. هاتان المستهترتان تتصرّفان بحنكة. ولايُدرك المرء مرامهما. لعلهما تنتظران مناسبةً... أفضل... مني. لكني أقول لك أنا، إنني سأنتهز تلك الفرصة متى عرضتْ لي.

«زد على ذلك، أن هذه البنت «ايفيت» تحيّرني تماماً. إنها سرٌّ خفيّ. إن لم تكن غول الدهاء والانحراف الأكملَ الذي لم أر مثله قط، فهي بالتأكيد ظاهرة الطهارة التي لايمكن أن نجد أعجب منها. إنها تعيش في هذا الوسط الحقير بيسر مطمئن ومزدهٍ، شقيةً أو ساذجةً على نحو رائع.

«فرعُ مغامرةٍ عجيبٌ، نبتت على دِمْنة هذا العالم، مثل نبتة بديعة تغذّت بالعفونة، أو أنَها بنت رجلٍ عريق النسب، فنانٍ كبير، أو إقطاعي كبير، أمير أو ملك وقع، ذات مساء، في سرير أمها، لايمكننا أن ندرك ماهي ولا فيم تفكّر. لكنك ستراها. أخذ «سافال» يضحك وقال:

- أنت عاشق.

- لا. أنا من الطامعين بها، وهو شيء مختلف. وسوف أقدّم لك، على كل حال، أرصن الطامعين بها معي. لكن لي فرصاً متميّزة. إن لي السبقَ عليهم، إذ أنها تُبدي لي شيئاً من الحظ.

كرّر «سافال»:

- أنت عاشق.

-لا. إنها تبلبلني، تفتنني وتقلقني، وتجذبني وتخيفني. وأنا أحذرها كما أحذر الشرك. وأنا أشتهيها كما أشتهي الشراب على العطش. أخضع لسحرها ولاأقربه إلا متوجّساً توجّس من يقرب رجلاً يُشتَبَه بأنه لصٌّ حاذق. بقربها أشعر بانجذاب خارج على العقل، نحو براءتها المحتملة، كما أشعر بحذر معقول جداً من مكرها الذي لايقلّ احتمالاً. أحسُّ أني على اتصال بكائن غير عادي، خارج القواعد الطبيعية، رائع أو كريه. لستُ أدري.

أعلن سافال للمرة الثالثة:

- أقول لك إنك عاشق. فأنت تتحدّث عنها بفخامة الشاعر وبغنائية الشاعر الجوّال. هيا، انزلْ إلى ذاتك، جُسَّ قلبكَ واعترفْ.

خطا سيرفيني بضع خطوات دون أن يجيب، ثم استأنف:

- هذا ممكن، بعد كل شيء. وفي كل الأحوال، إنها تشغل بالي كثيراً. نعم، لعلي عاشق. فأنا أفكّر فيها تفكيراً مفرطاً. أفكّر فيها وأنا أنام، وأيضاً وأنا أستيقظ... وهذا خطيرٌ جداً. صورتها تتبعني، تلاحقني، ترافقني بلا انقطاع، وهي دائماً أمامي وحولي وفيَّ. هذا الوسواس الفيزيائي. أهو من الحب؟ لقد دخلت صورتُها ناظري دخولاً عميقاً جداً حتى إني أراها حالماً أغمض عينيّ. وكلما شاهدتُها انتابني خفقانٌ في القلب، لستُ أنكر ذلك. وإذن فأنا أحبها، ولكن بطريقة غريبة. وأنا أشتهيها بشدّة، أما فكرةُ أن أجعل منها زوجةً لي فتبدو لي جنوناً، وحمقاً، وفظاعة. وأنا أخافها قليلاً أيضاً، خوف العصفور الذي يحوّم فوقه بازيٌّ. وأنا أغار عليها أيضاً، أغار من كل ما لا أفهمه في هذا القلب الذي لايُفهم. وأنا أتساءل دائماً: «أهي صبيّة فاتنةٌ أو مغناج بغيضة؟» إنها تقول أشياءً ترجف جيشاً؛ لكن الببغاوات تقول مثل ذلك أيضاً. وهي أحياناً طائشة أو وقحة بحيث تجعلني أؤمن ببراءتها النقيّة، وهي أحياناً أخرى ساذجة سذاجة لاتُصدَّق، تجعلني أشك بأنها لم تكن عفيفة قط.

وهي تُثيرني وتهيجني كالمومس وهي في الوقت نفسه، محترسة كالعذراء. تبدو أنها تحبني، وتهزأ بي؛ تتظاهر أمام الملأ كأنها عشيقتي وتعاملني بيني وبينها كما لو كنتُ أخاها أو خادمها.

أتصورّ أحياناً أن لها من العشاق ما لأمها. وأحياناً أخرى أتخيّل أن لاشيء يخطر على بالها، لاشيء.

«ثم إنها قارئة مهووسة بالقراءة. وأنا، بانتظاري ما هو أفضل، أزوّدها بالكتب. وهي تدعوني أمين مكتبتها.

ولا ريب أن ذلك سيُحدث في رأسها خليطاً مشوّشاً.

«في كل أسبوع، ترسل إليها «المكتبةُ الجديدة»، من قبلي، كلّ ماظهر، وأظن أنها تقرأ كل شيء، دون تمييز.

ولعل لهذا الخليط من القراءة يداً في تصرّفاتها الغريبة. وإذا ما تصوّرنا الحياة من خلال خمسة عشر ألف رواية فلا بدّ أن نراها في ضوءٍ طريفٍ، وأن نكوّن عن الأشياء أفكاراً غير مألوفة.

«أما أنتَ فأنا أنتظرك. ومن المؤكّد أنني لم أُضمر لامرأة الحبّ الذي أضمره لهذه.

«ومن المؤكد أيضاً أنني لن أتزوّجها.

«وإذن فإن كان لها عشّاقٌ فأنا أزيد العدد واحداً، وإن لم يكن لها فسوف أكون الرقم الأول، كما هي الحال في القاطرة.

«الحالة بسيطة. لن تتزوج، بالتأكيد. مَنْ سيتزوّج ابنة المركيزة «أوباردي»، ابنة «أوكتافي بار دان»؟ لا أحد، ولألف سبب «أين يوجد الزوج؟ بين علية القوم؟ أبداً. بيت الأم شبيه بمحلّ عمومي تجذب فيه البنتُ الزبُنَ. لا يتم الزواج في هذه الشروط.

«بين البرجوازية؟ الاحتمال أقل. زدْ على ذلك أن المركيزة ليست تلك المرأة التي تُقدم على عمليات فاسدة؛ وهي لن تُعطي، في النهاية، «إيفيت» إلا لرجل ذي مركز كبير لن تكتشفه.

«بين أبناء الشعب، إذن؟ الاحتمال أقل أيضاً. وإذن فلا مخرج.

هذه الآنسة ليست من العالم الراقي، ولا من البرجوازية، ولا من عامة الشعب، وهي لاتستطيع أن تدخل بالزواج أياً من طبقات المجتمع.

إنها تنتمي إلى البغاء الذهبي، بأمها، وبولادتها، وبتربيتها، وبوراثتها، وبتصرفاتها، وبعاداتها.

وهي لاتستطيع أن تُفلت من ذلك إلا إذا ترهّبتْ، وهو شيء غير محتمل، نظراً لتصرّفاتها وذوقها. ليس إذن سوى مهنة واحدة ممكنة: الحبّ. ولسوف تُقبل عليه إن لم تكن تمارسه قبل الآن. ليس بوسعها أن تهرب من مصيرها. ستتحول من فتاة إلى عاهرة، وأودّ أن أكون محور هذا التحوّل.

«إني انتظر. الهُواة كثيرون. وسوف ترى هناك فرنسياً، هو السيد «دي بيلفينيي»؛ وروسيا يُدعى الأمير «كرافالو» وايطاليا هو الفارس «فالريالي»، وكلّهم يُرشح نفسه ويُناور بناءً على ذلك. وإضافة إلى هؤلاء، نجد من حولها كثيراً من المغيرين ممّن هم أقل أهمية.

«المركيزة تترصّد. لكني أظنّ أنها تطمع فيّ. فهي تعلم أني غني وهي أقل سيطرة على الآخرين.

«إن صالونها، من ناحية أخرى، ليُدهش أكثر من أي صالون عرفته في هذا النمط من العُروض. فنحن نلقى فيه رجالاً مرموقين، بما أننا نحن أنفسنا نذهب إليه، ولسنا الوحيدين. أما النساء فقد وجدتْ أو بالأحرى لقد انتقتْ أفضلهن بين مختلسات المصارف. أين اكتشفتهن؟ ذلك غير معروف فهنّ من عالم محاذٍ لعالم الفاجرات الحقيقيات، محاذٍ لعالم البوهيميّة، محاذٍ لكل

شيء. ثم إنها ألهمتْ إلهاماً عبقرياً، وهو أنها اختارت، على الخصوص، المغامرات اللواتي يملكن أولاداً، وبنات بصورة رئيسيّة. بحيث يظن الغبي أنه إزاء نساء شريفات!»

بلغا جادّة «الشانزليزيه». كان النسيم الواني يمر على أوراق الشجر برقة، وينسلّ أحياناً إلى الوجوه، وكأنه أنفاسٌ عذبة لمروحة جبّارة تتهادى في مكان ما من السماء. وكانت الظلال الخرساء شاردة بين الأشجار؛ وظلال أخرى، على المقاعد، تكوّن بقعاً عاتمة. وكانت هذه الظلال تتكلم بأصوات خافتة، وكأنها تُسِرُّ بعضها لبعض أسراراً هامةً أو مخجلة.

استأنف «سيرفينيي»:

– لا تتصوّر مجموعة الألقاب الموهومة التي نلقاها في هذا العرين. وبهذا الصدد أتعلم أني سأقدّمك باسم الكونت «سافال»؛ أما سافال وحدها فلن تكون مقبولةَ، لن تكون مقبولة أبداً.

هتف صديقُه:

– آه! كلا، ثم كلا. فعأنا لا أريد أن يُظَنَّ بي، ولو لمساء، ولو عند هؤلاء الناس، تلك النقيصة المضحكة وهي أن انتحل لقباً. آه! كلاّ.

أخذ سيرفينيي يضحك:

– أنت غبي! أنا، هناك، سمّوني الدوق «دي سيرفينيي» ولا أدري كيف، ولا لماذا. والشيء المؤكد أنني الدوق «دي سيرفينيي»، وسأبقى كذلك، دون أن أشكو أو أن أضج. وهذا لايضايقني. ولولا ذلك لاحتُقِرتُ احتقاراً فظيعاً.

لكن «سافال» أبى أن يقتنع:

– أنت، أنت نبيل، ويمكن أن تمشي الحال. أما أنا فلا، وسأظل رجلاً من عامة الناس في ذلك الصالون. أفضل أو أسوأ سيكون ذلك علامة تميّزي... و... تفوّقي.

أمعن «سيرفينيي» في عناده :

- أؤكد لك أن ذلك غير ممكن، غير ممكن أبداً، أتسمع؟ سيبدو ذلك قبيحاً. ستبدو كمن يلمّ الخرق في مجمع الأباطرة. دعني أتصرّف، سأقدّمك باعتبارك نائب ملك في «الميسسيبي الأعلى»، ولن يُدهش أحدٌ. فعندما نطلب المعالي لن نقنع منها بالقليل.

- كلا، مرة أخرى، لاأريد.

- ليكنْ. لكني، في الحقيقة، جدّ أحمق بمحاولتي إقناعك. وأنا أتحدّاك أن تدخل ذلك المكان دون أن تُقلَّد لقباً كما تُعطى السيدات باقةً من البنفسج عند عتبة بعض المخازن.

انعطفا إلى اليمين، في شارع «بيري، وصعدا إلى الطابق الأول في بيت حديث، وتركا بين أيدي أربعة من الخدم معطفيهما وعصواهما. كانت رائحةُ احتفالٍ دافئةٌ، رائحة زهور وعطور ونساء تُثقل الهواء؛ وكانت تأتي من الغرف المجاورة التي أحسّا أنها تغصّ بالناس، جلبةٌ عظيمة مختلطة.

اقترب من الوافد الجديد رجلٌ شبيهٌ برئيس التشريفات، طويل مستقيم بطين، رصين، يؤطّر وجهه عارضان أبيضان، وسأل وهو يحيي تحية قصيرة مزهوّة:

- قدومَ مَنْ عليّ أن أُبلغ؟

أجاب سيرفينيي :

- السيد سافال.

حينئذ فتح الرجلُ الباب، وصاح في جمهور المدعوّين بصوتٍ رنّان :

- السيد الدوق دي سيرفينيي، السيد البارون سافال.

كان الصالون عامراً بالنساء. وما كان يُشاهَدُ قبل كل شيء عرضٌ للصدور العارية فوق موج من القماش البرّاق.

كانت ربة المنزل واقفةً، تتحدث مع ثلاث صديقات، فالتفتت وأقبلت بخطاً مهيبة، مع رشاقة في المشية وبسمة على الشفتين.

كانت جبهتها الضيقة. المنخفضة جداً، مغطّاةً بكتلة من الشعر اللامع السواد، المضغوط كالجزة، الذي يحتلّ جزءاً من الصدغين.

كانت طويلة، على جانب كبير من القوة، ومن السمنة، ناضجة قليلاً لكنها جميلة جداً، جمالاً ثقيلاً، دافئاً، قوياً. وتحت هذه القلنسوة من الشعر الذي يُغري بالحلم، وبالابتسام، والذي يجعلها مُشتهاةً على نحو خفيّ، تنفتح عينان واسعتان وسوداوان أيضاً. كان أنفها رقيقاً نوعاً ما، وفمها كبيراً، فاتناً إلى أقصى الحدود، مُعداً للكلام وللاستيلاء.

كان سحرها الأشدّ، من ناحية أخرى، في صوتها. كان صوتها يخرج من هذا الفم كما يخرج الماء من الينبوع، طبيعياً جداً، خفيفاً جداً، واضح النبرة جداً، صافياً جداً، بحيث يشعر السامعُ بالمتعة الحسيّة وهو يستمع إليه. كان فرحاً للأذن أن تصغي للكلمات اللدنة تنساب منه برشاقة الجدول الذي ينطلق، وكان فرحاً للعين أن ترى تلك الشفتين الشديدتي الحمرة تنفتحان لتسمحا بمرور تلك الكلمات.

مدّت لـ «سيرفينيي» يدها فقبّلها، وأوقعتْ مروحتها المعلقة بطرف سلسلة ذهبية متقنة الصنع، ثم مدّت يدها الأخرى لـ «سافال» وهي تقول له:

- أهلاً بك، يابارون. جميع أصدقاء الدوق هم في منزلهم هنا.

ثم حدّقت بنظرها اللمّاع في هذا المارد الذي قُدِّم إليها.

كان على شفتها العليا شيء من الزغب الأسود، ظلُّ شارب، أكثر قتامة عندما تتكلم. وانبعثت منها رائحة قوية، مُثملة، عطرٌ من امريكا أو من الهند.

دخل أشخاصٌ آخرون وكلهم مركيز أو كونت أو أمير.

قالت لـ «سيرفينيي» برقة الأم :

- ستجدان ابنتي في الصالون الآخر . تسليّا ، فالبيتُ بيتكما .

وتركتهما لتلقى القادمين الآخرين وهي ترمي «سافال» بتلك النظرة الخاطفة المبتسمة والهارية التي تملكها النساء لتُفهم الآخرين أنهم قد أعجبوها . أمسك سيرفينيي بذراع صديقه وقال :

- سأقودك . فهنا ، في هذا الصالون الذي نحن فيه ، النساءُ هنَّ معبد الجسد أكان غضاً أم لا . الأشياء المستعملة بسعر الجديدة ، بل إنها مسعَّرة بأسعار غالية ، إذ أنها تُستأجر . إلى اليسار ، القمار . إنه معبد المال . وأنت تعرف ذلك . في المؤخرة ، الناس يُرقصون ، إنه معبد الطهارة ، المذبح ، سوق الفتيات . فها هنا تُعرَض ، من كل الوجوه منتوجات هؤلاء السيّدات . وها هنا يوافَقُ حتى على اتحادات شرعية ! هنا هنا المستقبل ، والأمل . . . لليالينا . وهو أيضاً أغرب ما في متحف الأمراض النفسية هذا ، هؤلاء الفتيات الصغيرات اللواتي تفككت نفوسهن مثل أطراف المهرّجين الصغار المنحدرين من المهرّجين الكبار . فلنذهبْ لرؤيتهن .

كان يحيي الناسَ إلى اليمين وإلى الشمال ، ملاطفاً ، وفي شفتيه ثناءٌ ، مغطّياً كلَّ امرأة مكشوفة الصدر بنظرة الهاوي الحادة . وفي صدر الصالون الثاني ، كانت الأوركسترا تعزف «فالساً» ؛ وقفا على الباب ينظران . خمسة عشر زوجاً كانوا يدورون : الرجال برصانة ، والراقصات بابتسامة تجمّدت على الشفاه . وكُنّ يُرين الكثير من أجسادهن مثل أمهاتهن ؛ ولما كان صدار بعضهن لا يحمله سوى شريط رقيق يطوّق منشأ الذراع ، خيِّل للناظر أنه يشاهد ، بين الحين والحين ، بقعة عاتمة تحت الإبط .

وعلى حين غرّة ، ومن أعماق الشقّة ، اندفعت فتاةٌ طويلة ، مجتازةً كلَّ شيء ، صادمةً الراقصين ، رافعة بيدها اليسرى ذيل فستانها الذي لا حدّ لطوله . كانت تركض بخطاً قصيرة كما تركض النساء بين الجماهير ، وصاحت :

- آه! ها هو ذا «موسكاد»، يومك سعيد، «موسكاد»!

كان على قسماتها تفتّح الحياة، وإشراقة السعادة. وكان جسدها البض، الذهبي، جسد الشقراء، كأنما يشعّ. وكانت كتلة شعرها المبرومة على رأسها، شعرها المشوي بالنار، شعرها المشتعل، يثقل جبينها، ويؤود عنقها اللدن الذي مايزال على شيء من النحافة.

كانت تبدو كأنما خلقت لتتحرك كما أن أمها كانت مخلوقة لتتكلم، لفرط ما كانت حركاتها طبيعيةً، نبيلة وبسيطة. وكأنما يحسّ المرء بفرح نفسي وراحة جسدية وهو يراها تمشي، وتتحرك، وتحني رأسها، وترفع ذراعها.

كرّرت:

- آه! موسكاد، يومك سعيد، موسكاد.

هزّ «سيرفينيي» يدها بعنف كأنه يهزّ يد رجلٍ، وقدّمها لصديقه

- الآنسة «ايفيت»، صديقي البارون «سافال».

حيّت الغريب، ثم تفرّست فيه:

- يومك سعيد، يا سيدي. أأنتَ في كل أيامك بهذا المقدار من الكبر؟

أجاب «سيرفينيي» بلهجة مازحة يصطنعها معها ليخفي حذره وريبته:

- لا، يا آنسة. إنما اتّخذ أقصى أبعاده ليُعجب أمك التي تحبّ الكتَل.

قالت الفتاةُ بجدّ هازلٍ.

- ممتازٌ، إذن! لكن عندما تأتي من أجلي، فانقصْ قليلاً، إذا شئت؛ فأنا أحب الحالة بين الحالتين. خذْ «موسكاد»، إنه في النسَب التي تناسبني.

ومدّت للوافد الجديد يدها الصغيرة المفتوحة كليّاً. ثم سألت:

- أترقص، موسكاد؟ هيّا، إلى جولة «فالس».

لم يجب «سيرفينيي»، وطوّق خصرها بحركة سريعة، نزقة، وما لبثا أن تواريا بمثل هيجان الزوبعة.

كانا يرقصان أسرع من الجميع، يدوران، يدوران، يركضان وينفتلان حول نفسيهما بشغف، مترابطين حتى صارا شخصاً واحداً، والجسم مستقيم، والسوق تكاد تكون جامدةً، وكأن آليةً غير مرئية، مخفية تحت أقدامهما، جعلتهما يرفرفان هكذا.

كانا كأنهما لا يتعبان. وكان الراقصون الآخرون يرقصون ويتوقّفون شيئاً فشيئاً. بقيا وحدهما، يرقصان ولاينتهيان. بدا عليهما كأنهما لم يعودا يعرفان أين هما، ولا ماذا يفعلان، وأنهما ارتحلا بعيداً عن الحفلة الراقصة، في النشوة. وظلّ موسيقيّو الأوركسترا يعزفون، وعيونهم شاخصةٌ إلى هذين الزوجين النَفورين؛ وكان الجميع يتأملونهما، وعندما وقفا أخيراً، صفقّوا لهما.

احمرّت قليلاً الآن، مع عينين غريبتين، عينين متّقدتين وحييّتين، أقل جرأة مما كانتا عليه قبل حين، عينين مضطربتين شديدتي، السواد مع حدقة شديدة السواد، حتى إنهما لايبدوان طبيعتين.

بدا «سيرفينيي» كالثمل. استند إلى بابٍ ليستردّ توازنه.

قالت له:

- لاتُعاندْ، يا «موسكادي» المسكين، فأنا أصلب عوداً منك.

ضحك ضحكة عصبية وافترسها بنظرته مع اشتهاءٍ حيوانيّ في العين وفي تجعيدة الشفتين

ظلّت أمامه، عارضةً صفحة عنقها التي كان نفسُها يرفعها، على مرأى من هذا الشاب.

- في بعض الأحيان، أنتَ تبدو كالهر الذي يريد أن يثبَ على الناس. هيّا، أعطني ذراعك، ولنذهبْ إلى لقاء صديقك.

أعطى ذراعه دون أن ينبس بكلمة، وعبَرا الصالون الكبير.

لم يكن «سافال» وحده. فقد انضمّت إليه المركيزة «اوباردي». كانت تحدّثه عن أمور اجتماعية، أمور مبتذلة بذلك الصوت الساحر الذي يُثمل. وإذ كانت تنظر إليه في أعماق الفكر كانت تبدو وكأنها تقول له كلمات أخرى غير التي تقولها بفمها. وعندما أبصرت «سيرفينبي»، اتّخذ وجهها على الفور تعبيراً باسماً، والتفتت إليه:

– تعلم، يا صديقي، أنني استأجرتُ دارةً في «بوجيفال» لأقضي فيها شهرين. وأحسب أنك ستأتي لزيارتي. اجلبْ صديقك. اسمعْ، سأستقرّ فيها يوم الاثنين، أتريدان أن تأتيا للعشاء كلاكما يوم السبت القادم؟ سأحتفظ بكما نهار اليوم التالي بأكمله.

أدار «سيرفينبي» رأسه فجأة نحو «ايفيت». كانت تبتسم، مطمئنة، مشرقةً، وقالت بثقة لاتسمح بأي تردّد:

– بكل تأكيد سيأتي «موسكاد» للعشاء يوم السبت. لاحاجة إلى طلب ذلك منه. وسوف نُقدم على جملة من الحماقات، في الريف.

خيّل إليه أنه يرى وعداً يُولد في ابتسامتها، وأنه يلتقط مقصداً في صوتها.

حينئذ رفعت المركيزةُ عينيها الكبيرتين السوداوين إلى سافال:

– وأنت أيضاً، يا بارون؟

ولم يكن في بسمتها أدنى شك. انحنى:

– سأكون جدّ سعيد، يا سيدتي.

تمتمت «ايفيت» بمكر ساذج أو غادر:

– سنغيظ الجميع هناك، أليس كذلك، موسكاد؟ وسنثير حنق فَوْجي.

وأشارت بطرف عينها إلى بعض الرجال الذين كانوا يراقبونها من بعيد.

أجابها سيرفينيي :

- ما تشائين ، يا آنسة .

كان لا يلفظ «آنسة»، وهو يكلمها ، إلا بشيء من التحبّب ، بسبب تلك الألفة المنزلية .

وسأل «سافال» :

- لماذا تدعو الآنسةُ «ايفيت، صديقي «سيرفينيي» موسكاد ، ياترى؟

اتّخذت الفتاةُ هيئةً بريئةً :

- ذلك لأنه ينسلّ أبداً من اليد ، يا سيدي . نظن أننا نمسك به ، فإذا بنا لانمسك بشيء .

قالت المركيزة بلهجةٍ متهاونةٍ، وبدت كأنها تتابع فكرةً أخرى ، قالت دون أ ترفع نظرها عن عيني سافال :

- هؤلاء الأولاد مضحكون!

غضبت «ايفيت» :

- لستُ مُضحكةً : أنا صريحة! «موسكاد» يُعجبني ، وهو يتركني ، وهذا مزعج .

حياها «سيرفينيي» تحية عريضة :

- لن أتركك ، يا آنسة ، نهاراً ولا ليلاً .

ندّت منها حركةُ ارتعاب :

- آه! كلا! إياك! أقبلُ في النهار ، أما في الليل فسوف تضايقني .

سألها بوقاحة :

- ولمَ ذاك؟

أجابت بجسارة هادئة :

– لأنك لن تكون بهذا الحسن وأنت متبذّل .

هتفت المركيزةُ، دون أن يبدو عليها التأثّر :

– ها هما يتلفّظان بالفواحش . لاتصل البراءة إلى هذا الحدّ!

أضاف «سيرفينيي» بلهجة متهكّمة :

– هذا هو رأيي أيضاً، يا مركيزة .

حدّقت ايفيت فيه وقالت بلهجة متعالية ، جريحة :

– ها إنك ترتكب فظاظة ، وما أكثر ما يقع لك ذلك منذ بعض الوقت .

وإذ استدارت ، نادت :

– تعال ، أيها الفارس ، دافع عنّي ، فلقد أُهِنتُ .

دنا منها رجلٌ هزيل ، أسمر ، بطيءٌ في مشيته ، وقال بابتسامة مقتسرة :

– ومَنْ المذنب؟

أومأت برأسها إلى سيرفينيي :

– هو ذا ؛ لكنني أحبّه ، مع ذلك ، أكثر منكم جميعاً ، لأنه أقل إملالاً .

انحنى الفارسُ «فالريالي» :

– كلٌّ يفعل ما بوسعه . لعلنا لانملك ما له من مزايا ، لكننا لسنا أقل إخلاصاً .

أقبل رجلٌ ، عظيم البطن ، طويل القامة ، رمادي العارضين ، يتكلّم بقوة :

– آنسة إيفيت ، أنا خادمك .

صاحت :

- آه! سيد «دي بيلفينيي».

ثم التفتت إلى «سافال»، وقدّمته:

- طالبُ زواج أصيلٌ، طويلٌ، ضخم، غنيّ وغبيّ. فهكذا أحبهم. رئيس الطبّالين... على مائدة المضيف. عجباً، لأنتَ أكبر منه. كيف أسميّكَ؟... طيّب، سأدعوكَ السيد «دي رودس» الابن، بسبب ذلك الجبّار الذي كان أباك بالتأكيد. لكن لابدّ أن لديكما أشياء مُثيرة للاهتمام تنويان أن تقولاها من فوق رؤوس الآخرين. مساء الخير.

ومضتْ إلى الأوركسترا بحيوية، لترجو الموسيقيين أن يعزفوا رقصةً مربّعة.

بدت السيدة «أوباردي» شاردةً، قالت لسيرفينيي بصوتٍ بطيء، لكي تتكلم:

- أنت تشاكسها دائماً، فتُكسبها سوءَ الطبع، وطائفةً من العيوب القبيحة.

أجاب:

- ألم تنتهي إذن من تربيتها؟

لم يَبدُ عليها أنها فهمت، وظلت تبتسم برفق. لكنها شاهدت سيداً رسمياً مزداناً بوسام صليب الحرب آتياً إليها، فهرعتْ إليه:

- آه يا أمير! يا أمير، ما أعظم سعادتي!

أمسك «سيرفينيي» مرة أخرى بيد سافال وجرّه:

- هذا هو آخر طامح جديّ الزواج. ألا تراها رائعة؟

فأجاب سافال:

- إني أرى الاثنتين رائعتين. وتكفيني الأمُ تماماً.

حيّاه سيرفينبي :

- أنا تحت تصرّفك، يا عزيزي .

كان الراقصون يدفعانهما، وهم يتّخذون أماكنهم للرقصة المربّعة، اثنين اثنين، وفي صفين متواجهين .

قال سيرفينبي :

- والآن، تعال ننظر إلى اللاعبين .

ودخلا صالة القمار .

حول كل مائدة، وقفت حلقةٌ من الرجال ينظرون . كان الكلام قليلاً، وأحياناً كان رنينٌ نحيفٌ لقطعة ذهبية ملقاة على المائدة أو ملتقطة فجأة يمزج الحفيف المعدني الخفيف بضجة اللاعبين، وكأن صوت المال قد قال كلمته وسط الأصوات البشرية .

جميع هؤلاء الرجال كانوا مزدانين بأوسمة شتى، وشرائط غريبة، وكانت لهم هيئةٌ واحدة صارمةٌ بوجوه مختلفة، وكانوا يتميزون على الخصوص باللحية . الأمريكي متصلّب بلحيةٍ كالحذوة والانكليزي متعالٍ بلحيته المروحية المنفتحة على صدره، الاسباني بجزّته السوداء الصاعدة حتى عينيه، والروماني بشاربه الضخم الذي مهر به «فكتور عمانوئيل، ايطاليا، النمساوي بعارضيه، ولحيته الحليقة، والجنرال الروسي الذي بدت شفتهُ مسلحةً برمحين من الشعر المفتول، والفرنسيون بالشارب اللطيف، وهم يظهرون تفنّن جميع حلاّقي العالم .

سأل سيرفينبي :

- ألا تلعب؟

- لا، وأنت؟

لا ألعب بتاتاً هنا. أتريد أن ننصرف، سنرجع في يوم أكثر هدوءاً. فها هنا اليوم كثيرٌ من الناس وليس بمقدورنا أن نفعل شيئاً.

- هيّا!

وتواريا في باب يقود إلى البهو.

ما إن أصبحا في الشارع حتى قال «سيرفينيي»:

- حسناً! ما رأيك؟

- الواقع أن ما رأيتُه شائقٌ. لكنني أفضل الجانب النسائي على الجانب الرجالي.

- صدقتَ. فهؤلاء النسوة هنّ أفضل ما في العرق عندنا ألا ترى أننا نشتمّ الحبّ لديهن كما نشتمّ العطور لدى الحلاق. الحقيقة أن هذه هي البيوت الوحيدة التي يلهو فيها المرءُ بماله. ويا لهنّ من متمرّسات، ياعزيزي! ومن فنّانات! هل أكلت أحياناً حلوى الخبّاز؟ إن طعمه لذيذ، وهو لايساوي شيئاً. الرجل الذي عجنها لايحسن عمل شيءٍ غير الخبز. وهكذا. فحبّ امرأةٍ من عامة الناس يذكّرني دائماً بحلوى خادم الخباز، بينما الحبُّ الذي نجده عند مركيزات آل «أوباردي» حلوى لذيذة ناعمة. أوه! هؤلاء النسوة يُحسنّ صنع الحلوى! ونحن ندفع هنا خمسة فلوس بما ثمنُه في مكانٍ آخر فلسان، وهذا كلّ ما في الأمر.

- ومن السيّدُ داخل البيت، في هذه اللحظة؟

هزّ «سيرفينيي» كتفيه هزّة الجاهل:

- لا أعلم شيئاً عن ذلك. آخر مَنْ عرفتُ كان نبيلا انكليزياً سافر منذ ثلاثة أشهر، وهي تعيش الآن على المجموع المشترك، على القمار ربّما، وعلى

اللاعبين، لأن لها نزواتها. لكنْ، قلْ لي، لقد اتّفقنا أن نتناول العشاء عندها، يوم السبت، في «بوجيفال»، أليس كذلك؟ نحن في الريف، أكثر حريةً، وسوف أطّلع، في النهاية، على ما في رأس «ايفيت»!

أجاب سافال:

- أنا، لا أطلبُ أفضل من ذلك، فليس عندي ما أفعله، في ذلك اليوم.

أزعجا، وهما ينحدران من «الشانزليزيه»، في ظل ألق النجوم، زوجين متمدّدين على مقعد، فتمتم سيرفيني:

- يا لها من حماقة ويا له من شيء عظيم الأهمية، في الوقت نفسه! ياللحب من شيءٍ مبتذلٍ ومسلٍّ، ومشابه لذاته أبداً ومتنوع أبداً. والصعلوك الذي يدفع عشرين فلساً لتلك العاهرة لايطّلب منها إلا ما أدفع من أجله عشرة آلاف فرنك لواحدة من بيت «اوباردي»، لعلها ليست أكثر شباباً ولا أقل غباء من تلك المتنقّلة من واحدٍ إلى آخر؟ يا لها من بلاهة!

لم يقل شيئاً أثناء بضع دقائق، ثم قال من جديد:

- سيّان، سيكون قاسياً حظُّ مَنْ يُحبّ «ايفيت» أولاً. أوه! من أجل ذلك، أُعطي. . . أعطي. . .

لم يجد ما قد يُعطيه. وقال له «سافال» مساء الخير، عندما بلغا زاوية الشارع الملكي.

-٢-

أعدت المائدة في الشرفة المطلة على النهر. كانت دارةُ «الربيع» التي استأجرتها المركيزةُ «أوباردي»، على مستوى ارتفاع منتصف الرابية، عند منحنى «السين» بالذات الذي يدور أمام جدار الحديقة ليجري نحو «مارلي».

في مواجهة المسكن، تشكّل جزيرة «كرواسي» أفقاً من الأشجار الكبيرة، كتلة من الخضرة، وكان يرى طرفٌ طويل للنهر العريض- حتى مقهى «غرينوبير» العائم، مقهى بين أوراق الشجر.

هبط المساء، مساءٌ من تلك الأمسية الهادئة على ضفاف الماء، الملوّنة والعذبة، مساءٌ ساجٍ من تلك الأمسية التي تبعث الإحساس بالسعادة، لانسمة هواء تحرك الأغصان، لارعشة من ريح تمرّ على سطح السين المستوي والصافي.

بيد أن الطقس لم يكن كثير الحرارة. كانت نداوةُ حافات السين المُنعشة تصعد إلى السماء الساكنة.

أخذت الشمس تمضي وراء الأشجار، نحو مناطق أخرى، وكان المرءُ كأنما يمتص هناءة الأرض الغافية، يمتص، وسط سكينة الفضاء، حياةَ العالم الوانية.

عندما خرج الناسُ من الصالون ليجلسوا إلى المائدة، أبدى كلٌّ واحد افتتانه. واجتاح القلوبَ حبورٌ رقيق! أحسّوا أنهم سيَسْعَدون بهذا العشاء هنا، في هذا الريف، مع هذا النهر العظيم، وهذه النهاية للنهار إطاراً، متنفّسين هذا الهواء الصافي والعذب.

تأبّطت المركيزة ذراع «سافال»، وتأبّطت «ايفيت» ذراع «سيرفينيي».

كان هؤلاء الأربعة وحدهم.

بدت المرأتان مختلفتين عما كانتا عليه في باريس. ولاسيّما «ايفيت». التي لاتكاد تتكلم، والتي بدت ذابلة، رزينة.

لم يرها «سافال» كما عرفها، فسألها:

- مابالك، ياآنسة؟ أراك تغيّرتِ منذ الأسبوع الفائت. لقد غدوتِ شخصاً متعقّلاً كلَّ التعقّل.

أجابت:

- الريفُ هو الذي فعل بي ذلك. أشعر بنفسي مضحكةً. أنا، على كل حال، لاأشبه نفسي يومين متتالين، أبدو اليوم مجنونة وغداً كئيبةً كالمرثية؛ إني أتغيّر كالوقت ولا أعرف لماذا. وأعلم أنني قادرةٌ على كل شيء بحسب اللحظات. هناك أيام يمكنني أن أقتل فيها الناس، لا الحيوانات، فأنا لن أقتل حيواناً أبداً، بل الناس، نعم الناس، وهناك أيامٌ أخرى أبكي فيها من أجل أمورٍ تافهة. وتخطر لي طائفةٌ من الأفكار المختلفة، وذلك منوطٌ بالطريقة التي ننهض فيها من النوم. في كل صباح، عندما أستيقظ أستطيع أن أقول كيف سأكون حتى المساء. لعل أحلامنا هي التي تُهيّئنا على هذا النحو. كما أن ذلك يتعلّق بالكتاب الذي انتهيتُ لتوّي من قراءته.

كانت مستكملةً زينتها من الفلانيلا البيضاء التي لفّتها لفّاً رقيقاً في لدونة القماش الفضفاض. وكان صدارها الكبير الثنيّات، يُبرز صدرها الطليق، الصلب والناضج. وكان عنقها الدقيق خارجاً من زبله الدنتيلا الضخمة، منحنياً بحركات ملطّفة، أكثر شقرة من فستانها؛ حليةٌ من الجسد تحمل تلك الحزمة الثقيلة من شعرها الذهبي.

أخذ سيرفينيي يطيل النظر إليها. قال:

- أنت فاتنةٌ، هذا المساء، يا آنسة. أحب أن أراك دائماً هكذا.

قالت له بشيء من المكر العادي:

- لا تبحْ لي بحبك، موسكاد. فسوف أحمل بوحك على محمل الجدّ هذا اليوم، وقد يكلّفكَ ذلك غالياً.

بدت المركيزةُ سعيدةً، سعيدة جداً، لقد تلفّعت بالسواد، فارتدت بأناقة رفيعة فستاناً خالياً من الزخرفة يرسم خطوط جسدها الممتلئة والقوية، و على صدارتها شيء من الحمرة، ومن الزنّار يتدلّى شريط من القرنفل الأحمر، ثم يرتفع ليُعقد على الخصر، وفي شعرها القاتم وردةٌ حمراء، كانت تحمل في شخصها كله، في هذه الزينة البسيطة التي بدت فيها الزهور كأنها تَدْمى، في نظرتها التي كانت تنصبّ انصباباً على الناس، في صوتها البطيء، في حركاتها النادرة، كانت تحمل شيئاً لاهباً.

بدا «سافال» أيضاً جاداً، مستغرقاً. كان يمسك بيده وبحركة مألوفة لحيتَه السمراء المشذّبة على شكل قرن، على نمط هنري الثالث، ويبدو كأنما يفكّر في أشياء عميقة.

لم يقل أحدٌ شيئاً خلال بضع دقائق.

ثم أعلن «سيرفينيي» بينما كان يُقدَّم سمك «الترويت».

- للصمت حسناتُه في بعض الأحيان. ونحن أقرب بعضنا إلى بعض عندما نصمت منّا عندما نتكلم؛ أليس كذلك، يامركيزة؟

التفتت إليه قليلاً وأجابت:

- هذا صحيح. ومن المُستعذب أن نفكّر معاً في أشياء سارة.

ورفعت نظرها الدافىء نحو «سافال»، وبقيا لحظةَ يتأمل كلٌّ منهما الآخر، العين في العين.

جرت على المائدة حركةٌ طفيفة لاتكاد تُرى.

استأنف «سيرفينيي»:

– آنسة «ايفيت»، ستحملينني على الاعتقاد أنك عاشقة إذا ظللت عاقلة هكذا. ولمن يمكن أن تكوني عاشقة؟ لنبحثْ معاً، إذا شئت. إني أدعَ جانباً جيش المولّهين السوقيين، ولا أنظر إلا إلى العاشقين الرئيسين: للأمير «كرافالو»؟

تنبّهت إيفيت عند ذكر هذا الاسم:

– عزيزي المسكين موسكاد، كيف يخطر هذا على بالك! لكن هذا الأمير يبدو روسياً من متحف الشمع، حصل على الأوسمة في مباريات التزيين.

– طيّب. لِنُلغِ الأمير؛ وإذن فأنت تؤثرين الفيكونت بيير دي بيلفينيي؟

أخذت تضحك هذه المرة وسألت:

– أتراني متعلّقة بعنق «ريزينيه». (كانت تدعوه، حسب الأيام ريزينيه ومالفوازيه، وآرجنتي، لأنها كانت تُضفي على الناس جميعاً ألقاباً من عندها). أهمس له:

«عزيزي بيير الصغير، أو يا بدر والالهي، أو يابيير الظريف، قرِّب رأسَك الضخم، رأس التوتو، من امرأتك الصغيرة الغالية لكي تقبّله.»

أعلن سيرفينيي:

احذفي الاثنين. بقي علينا الفارس «فالريالي» الذي يبدو أن المركيزة تخصّه بحظوتها.

عاد إلى «ايفيت» فرحُها كله:

– ذو الحساسية المفرطة؟ إنه بكّاءٌ، نوّاح. وهو يجري وراء مآتم الدفن التي من الدرجة الأولى أحسب نفسي ميتة كلما نظر إليّ.

- خلصنا من الثلاثة. وإذن فقد أحببتِ من أول نظرة البارون سافال، الحاضر هنا.

- السيد «دي رودس» الابن، لا، إنه مُفرط القوة. سيُخيَّل إليّ أنني أحبّ قوس النصر.

- إذن لاريب أنك تعشقينني أنا، لأنني أنا الوحيد بين عشّاقك الذي لم تتحدّثي عنه بعد. ولقد تحفظتُ تواضعاً وحذراً. ولا يبقى عليّ إلا أن أشكرك.

أجابت برشاقة فرحة:

- أعشقك أنت، موسكاد؟ آه! كلا. أنا أحبّك كثيراً... لكني لاأحبّك... انتظرْ، لا أريد أن أُثبّطكَ... أيضاً. لكَ فرصُكَ... ربما... ثابره، موسكاد، كنْ مخلصاً، ملاطفاً، ليّن العريككة، جمّ الرعاية، مبادراً إلى الخدمة، مطيعاً لأدنى نزواتي، مُقدماً على كل شيء من أجل إرضائي... وسوف نرى... فيما بعد.

- لكني أفضّل، يا آنسة، أن أقدّم لك كلّ ما تطلبينه هنا، بعد لا قبل، إن كنتِ لاتجدين بأساً في ذلك.

سألتْ ببراءة خادمةِ المسرحيات:

- بعد ماذا، موسكاد؟

- بعد أن تُريني أنك تحبينني، طبعاً!

- حسناً! تصرّف وكأنني أحبّك، وآمنْ بذلك، إذا شئتَ...

- لكن، لأنّ...

- صهْ، موسكاد، كفانا حديثاً في هذا الموضوع.

حيّا التحيّة العسكرية وصمت.

كانت الشمس قد غارت وراء الجزيرة، لكن السماء ظلت وهّاجة كالمجمرة، وبدا ماءُ النهر الهادىءُ كأنه تحولَ إلى دمٍ . وجعل بريقُ الأفق البيوتَ والأشياء والناس حمراً. وكانت الوردةُ القانية الحمرة في شعر المركيزة تبدو مثل قطرةٍ من الأرجوان هبطت من النجوم على رأسها.

نظرت «ايفيت» بعيداً، وضعت أمُّها يدها العارية على يد سافال، وكأن ذلك قد حدث سهواً؛ لكن البنت بدرت منها حركةٌ، فطارت يدُ المركيزة بحركة سريعة لتُصلح شيئاً في ثنايا صدارها.

قال سيرفينيي «الذي كان ينظر إليهما :

- إذا شئتِ، يا آنسة، سنقوم بجولةٍ في الجزيرة، بعد العشاء؟

فرحت بهذه الفكرة :

- أوه! نعم؛ سيكون ذلك رائعاً؛ وسنذهب وحدنا، أليس كذلك، موسكاد؟

- نعم، وحدنا، يا آنسة.

ثم صمتا مرة أخرى.

كان صمتُ الأفق العريض، وسكون المساء الناعس يخدّران القلوب والأجسام والأصوات. ثمّة ساعات هادئة، ساعات للتأمل الخاشع يكاد يغدو فيها الكلامُ مستحيلاً.

كان الخدم يخدمون بلا ضجّة. انطفأ حريق السماء، ونشر الليلُ البطيء ظلاله على الأرض. سأل سافال.

- أتنوين البقاء طويلاً في هذا المكان؟

أجابت المركيزة مشدّدةً على كل كلمة :

- نعم ما دمتُ سعيدة فيه.

وبما أن الرؤية لم تعد ممكنةً حُملت المصابيح التي ألقت على المائدة ضوءاً غريباً شاحباً تحت ظلمة الفضاء الدامسة؛ وما لبثت أن حطّت على غطاء المائدة سحابةٌ من الذباب. كان ذباباً صغيراً جداً يحترق عند مروره على فوّهات المصابيح، فإذا ما احترقت أجنحتُه وأرجله ذرذر البياض والصحون والكؤوس بضربٍ من الغبار الرمادي المنطنط.

كان يُزدرد مع الخمر، ويؤكل مع الصلصة، ويُرى وهو يتحرك على الخبز. وكانت الوجوه والأيدي يُدغدغها أبداً الحشدُ الحيّ الذي لا يُحصى من هذه الحشرات الدقيقة.

كان لابدّ من كبّ المشروب بلا انقطاع، ومن تغطية الصحون، ومن الأكل مع ستْر الأطعمة باحتياطات شديدة.

ألهَتْ هذه اللعبةُ «ايفيت»، وكان «سيرفينيي» حريصاً على أن يَحْمي كلّ ما تحمله إلى فمها، وأن يصون كأسها، وأن يمدّ فوق رأسها فوطته المنشورة كالسقف. لكن المركيزة، اشمأزّت وغدت عصبيّة، وكانت نهاية العشاء قصيرة.

لم تنسَ «ايفيت» اقتراح «سيرفينيي» فقالت له:

– سنذهب الآن إلى الجزيرة.

أوصتها أمّها بصوتٍ واهن:

– إياكما أن تمكثا طويلاً. وسوف نأخذكما، على كل حال، إلى المُعدّي.

مضوْا اثنين اثنين، الفتاة وصديقها في المقدّمة، على طريق جرّ السفن. كانا يسمعان، من ورائهما، المركيزة وسافال يتحدثان بصوت خافت، خافت جداً، وسريع جداً. كان كل شيء أسود سوادُه كثيف، سواده حالكٌ. لكن السماء كانت تعجّ بحبيبات من نار كأنما كانت تبذرها في النهر، لأن الماء القاتم كان مزروعاً بالنجوم.

أخذت الضفادع تنقّ، رافعة على طول حافات النهر نغمات نقيقها المتصلة والرتيبة .

وعنادل لاحصر لها طفقت تغرّد تغريداً خفيفاً في الهواء الساكن .

سألت «ايفيت» فجأة :

– عجباً، إنهما لايسيران خلفنا . أين هما؟

ونادت :

ماما!

لم يجبها أحدٌ . وأردفت الفتاة :

– لايمكن، مع ذلك ، أن يكونا بعيدين ، وكنتُ أسمعهما قبل حين .

تمتم «سيرفينيي»

– لابد أنهما عادا ولعل أمك أحسّت بالبرد .

وجرّها .

كان يلتمع أمامها ضوءٌ . ذلك نُزُلُ «مارتينيه» وهو صاحب مطعم وصيّاد سمك . وعند نداء المتنزهيْن ، خرج رجلٌ من البيت وصعدا إلى زورق كبير كان مربوطاً بقلسٍ وسط أعشاب الضفة . تناول المعدّي مجذافيه وأخذ الزورق الثقيل يوقظ ، وهو يتقدّم ، النجوم الغافية على الماء ، ويُرقصها رقصةً ولهى . وكانت تهدأ شيئاً فشيئاً وراءهم .

لامسا الضفة الأخرى ، ونزلا تحت الأشجار الكبيرة . كانت برودة الأرض الرطبة تطفو تحت الأغصان العالية والملتفّة التي بدت كأنها تحمل من العنادل بقدر ما تحمل من الأوراق .

أخذ بيانو بعيد يعزف فالساً شعبياً . أمسك «سيرفينيي» بذراع ايفيت ، ودسّ يده برفق وراء خصرها وضمّها ضماً لطيفاً . قال :

- فيمَ تفكّرين؟

- أنا؟ في لاشيء. أنا سعيدة جداً.

إذن أنتِ لا تحبّينني؟

- بلى، أحبّك، موسكاد، أحبك كثيراً؛ لكن دعني وشأني مع هذا الجوّ. فالطقس أجمل من أن أستمع لسخافاتك.

كان يضمها، مع أنها حاولت بانتفاضات طفيفة أن تتخلّص منه، ويحسّ عبر الفلانيلا الرقيقة الناعمة الملمس بدفء جسدها.

تمتم:

- ايفيت!

- نعم، ماذا؟

- ذلك، لأنني أحبكِ، أنا.

- لستَ جاداً، موسكاد.

- بلى: فأنا أحبك منذ زمن طويل.

ما فتئتْ تحاول أن تنفصل عنه، جاهدةً أن تسحب ذراعها التي سُحقتْ بين صدريهما. كانا يسيران بجهدٍ، وقد أزعجهما ذلك الرباطُ وتلك الحركات، متعرّجين وكأنهما ثملان.

لم يدر ما يقول لها، شاعراً أنه لا يجوز أن تُكلَّم الفتاة كما تُكلَّم المرأةُ، مضطرباً، باحثاً عمّا يجب فعلُه، متسائلاً إن كانت توافق أو إن كانت لاتفهم، منُهكاً فكره ليعثر على مايلزم من الكلمات الرقيقة، الصحيحة، القاطعة.

كان يردد بين الفينة والفينة:

- ايفيت! قولي، ايفيت!

ثم إنه رمى وجنتها بقبلة، على حين غرّة، وكيفما اتفق له:

- أوه! كم أنت سخيف! ألن تدعني وشأني؟

لم تُظهر نبرةُ صوتها ما تفكّر فيه، وماتريده؛

فلما رأى أنها لم تغضب أطبق شفتيه على منشأ العنق، على أول زغب مُذهب من الشعر، في ذلك الموضع الفتّان الذي طالما اشتهاه.

حينئذ تخبّطت وهي تنتفض انتفاضات شديدة لتتخلّص. لكنه كان يمسكها بعزمٍ، وألقى يده الأخرى على كتفها، فأجبرها بالقوة على أن تُدير رأسها إليه، واختلس من فمها مداعبة جنونية وعميقة.

انسلت من بين ذراعيه بتموّج سريع لجسدها كله، وانسابت على طول صدره، وأفلتت على عجل من ضمّته وغابت في الظلمة مع حفيفٍ بيّنٍ لتنانيرها، شبيهٍ برفرفة العصفور وهو يطير.

ظل جامداً، في أول الأمر، وقد أدهشته تلك اللدونةُ وذلك التواري، ثم لم يسمع شيئاً بعد ذلك، فنادى بصوت خافت:

- ايفيت!

لم تجب. فأخذ يمشي منقبّاً بعينيه في الظلمات، باحثاً بين الأدغال عن بقعة بيضاء قد يصنعها فستانها. كان كلُّ شيء أسود. نادى من جديد بقوّة أكبر:

- آنسة ايفيت!

سكتت العنادل.

حثّ الخُطا، وهو قلقٌ قلقاً مبهماً، رافعاً أبداً صوته:

- آنسة ايفيت! آنسة ايفيت!

لاشيء. وقف وأصاخ السمع. كانت الجزيرةُ كلها صامتةً؛ لولا

حفيف الأوراق فوق رأسه. الضفادع وحدها تابعت نقيقها المدوّي على الضفاف.

حينئذ طاف من حرجة إلى حرجة. منحدراً إلى الضفاف الملأى بالشوك على ساعد النهر السريع، ثم عاد إلى الضفاف المسطحة والعادية للساعد الراكد. وتقدم حتى بلغ قبالة «بوجيفال» وعاد إلى مُنشأة «لاغرونيير»، وفتّش جميع الهضاب، وهو يردد أبداً:

- آنسة ايفيت! أين أنت؟ أجيبي! هذه مهزلة! هيّا، أجيبي! لاتدعيني أبحث هكذا!

أخذت ساعةٌ بعيدة تدقّ. عدّ الدقّات:

منتصف الليل. لقد جاب الجزيرة منذ ساعتين، وخطر له أنها ربما عادت، فرجَعَ مهموماً، دائراً من عند الجسر.

كان خادمٌ راقدٌ على مقعد ينتظر في البهو. أيقظه سيرفيني، وسأله:

- أمن زمن بعيد عادت الآنسةُ ايفيت؟ تركتُها على أطراف البلدة لأنني كنت سأقوم بزيارة.

فأجاب الخادمُ:

- أوه! نعم، سيدي الدوق. عادت الآنسة قبل العاشرة.

قصد غرفته وأوى إلى سريره.

ظل مفتّح العينين دون أن يقدر على النوم. فقد هزّته تلك القبلةُ المختلسة. ماذا كانت تريد؟ وفيم كانت تفكّر؟ وماذا كانت تعلم؟ ما كان أجملها، وأشدّ إثارتها!

كانت شهواتُه المتعبةُ بالحياة التي يحياها، بجميع النساء اللواتي نالهن، بجميع ضروب الحب التي ارتادها، تستيقظ أمام هذه البنت الفريدة، الغضّة، المهيّجة والتي لايجد لتصرّفها تفسيراً.

سمع الساعة الواحدة تدق. لن ينام، بكل تأكيد! كان ساخناً، يتصبّب عرقاً، وأحسّ بقلبه المتسارع ينبض عند صدغيه، فنهض ليفتح النافذة.

دخلت الغرفة نفحةٌ باردةٌ عبّها بنَفَس طويل. كانت العتمةُ الكثيفة صامتة، دامسة السواد، لاحراك فيها. لكنه أبصر فجأةً أمامه، في ظلمات الحديقة، نقطةً لامعةً: وكأنها فحمة حمراء. فكّر: - عجباً، ذلك سيجار، لايمكن أن يكون ذلك سوى «سافال»، فناداه برفق:

- ليون!

أجابه صوتٌ:

- أهذا أنتَ، جان؟

- نعم، انتظرني، أنا نازلٌ.

ارتدى ثيابه، وخرج، وبلغ صديقه الذي كان يدخّن، وهو على كرسيّ من حديد:

- ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟

أجاب سافال:

- أنا، أنا أستريح!

وأخذ يضحك.

شدّ سيرفينيي على يده:

- تهانيّ، يا عزيزي. أما أنا... فإني منزعج.

- يعني أن...

- يعني... أن «ايفيت» وأمها لا يتشابهان.

- ماذا جرى؟ أخبرني!

روى له سيرفينيي محاولاته وفشلها. ثم أردف:

– من المؤكّد أن هذه الصغيرة قد شوّشتني. تصوّرْ أنني لم أستطع النوم. ما أغرب هذا، بُنَيَّةٌ. تبدو بسيطة كلّ البساطة، ولا يُعلَم شيءٌ عنها. إن امرأةً عاشت، وأحبّت، وعرفت الحياة يمكن أن ننفذ إليها بسرعة فائقة. أما العذراء، فالأمر عكس ذلك، إذ لانستطيع أن نتكهّن بشيء. في الواقع، بدأتُ أعتقد أنها تهزأ بي.

كان سافال يتهادى على مقعده، فقال ببطءٍ شديد:

– خذ حذرك، يا عزيزي، فهي تقودك إلى الزواج. تذكّره أمثلة مشهورة. فبالطريقة نفسها أصبحت الآنسة «دي مونتيجو»، التي كانت على الأقل من أصل كريم، امبراطورةً. فلا تقم بدور نابليون.

تمتم سيرفينيي:

– لاتخفْ عليّ، من هذه الجهة، فلستُ ساذجاً ولاامبراطوراً. وينبغي للمرء أن يكون أحد هذين ليقع هذه الوقعات. لكن قلْ لي، هل نعستَ؟

أبداً، لا.

أتريد أن نجول جولةً على ضفاف النهر؟

– بكل طيب خاطر.

فتحا الشبكة وأخذا ينحدران بحذاء النهر، نحو مارلي.

كانت تلك الساعة هي ساعة البرودة التي تسبق طلوع النهار، ساعة النوم الأعظم، الراحة الكبرى، السكون العميق. وحتى أصوات الليل الخافتة هدأت. وكفّت العنادلُ عن تغريدها، وأقلعت الضفادعُ عن ضوضائها؛ لا نأمة سوى ما ينبعث في مكان ما من صرير عن حيوان صغير أو ربما عن طائر صغير، صرير كصرير المنشار، ضعيفٍ، رتيبٍ، منتظم مثل عمل آلي.

وفجأة قال «سيرفيني» الذي يتحلّى بين حين وآخر بالشعر والفلسفة:

- اسمعْ. هذه الفتاة شوشتني تماماً. في الحساب، واحد وواحد اثنان. في الحب واحد وواحد ينبغي أن يساويا الواحد، لكنهما اثنان مع ذلك. هل أحسست بذلك، أنت؟ تلك الحاجة إلى أن ترشف امرأة إلى ذاتك أو أن تغيب فيها؟ لستُ أتكلم عن حاجة العناق الحيوانية، لكن عن ذلك العذاب النفسي والعقلي لكي نتّحد بكائن آخر، لكي نفتح له نفسنا كلها، قلبنا كله، ولكي ننفذ إلى فكره حتى الأعماق. ونحن لانعلم شيئاً عنه ولا نكتشف شيئاً أبداً من ذبذبات إرادته، ومن رغباته، وآرائه، ولا نستشف أبداً، ولو قليلاً كلَّ مجهول النفس، كل سرّها، تلك النفس التي نحسّ أنها شديدة القرب منا، المختبئة خلف عينين تنظران إليك، صافيتين كالماء، شفافتين وكأنْ ليس تحتهما سرّ؛ نفس تحدّثك عبر فمٍ محبوب، يُخيَّل إليك أنه لك لفرط ما تشتهيه؛ نفس تلقي إليك، عبر الكلمات، بأفكارها واحدة واحدة، بيد أنها تظل أبعد عنكَ من النجوم بعضها عن بعض، وأشد استغلاقاً من تلك الكواكب! غريبٌ، ذلك كله؟

أجاب سافال:

- لستُ أطلب من المرأة ذلك كله، ولا أنظر خلف العينين، ولا أهتم بالمحتوى إلا قليلاً، لكني أهتم بالمحتوي.

تمتم سيرفيني:

- ذلك أن «ايفيت» شخصٌ فريد. كيف ستستقبلني هذا الصباح؟

بينما كانا يصلان إلى «آلة مارلي» شاهدا السماء تشحب. وأخذت الديكةُ تصيح في أقنانها؛ وكانت أصواتها تصل مغشّاةً بكثافة الجدران. وزقزق عصفور في حديقةٍ، إلى الشمال، مردداً تغريدة قصيرة بساطتُها بالغة السذاجة.

قال سافال.

- آن الأوان لأن نعود.

وعادا. وشاهد سيرفينبي، وهو يدلف إلى غرفته، من نافذتها التي ظلت مفتوحة، الأفقَ وردياً جداً.

حينئذ أغلق النافذة وأسدل الستائر واضطجع ونام أخيراً.

حلم بايفيت طوال نومه.

أيقظه صوتٌ غريب. جلس في سريره، وأصاخ السمع، فلم يسمع شيئاً. ثم سمع فجأة على أفاريز النافذة طقطقة شبيهةً بطقطقة البَرَد المنهمر.

قفز من سريره، وهُرع إلى النافذة، وفتحها، فأبصر «ايفيت» واقفة في الممر، وهي ترميه بملء يديها، بحفنات من الرمل، في وجهه.

كانت ترتدي ثياباً وردية، وتضع على رأسها قبّعة من القش عريضة الأطراف تعلوها ريشة على نمط الفرسان الملكيين، وكانت تضحك ضحكاً ماكراً خبيثاً:

- ما لك! موسكاد، أما زلتَ نائماً؟ ماذا فعلتَ، يا ترى، هذه الليلة حتى تستيقظ متأخراً إلى هذا الحد؟ هل جريتَ وراء المغامرات، يا«موسكادي» المسكين؟

ظل مبهوراً بضياء النهار الشديد الذي دخل عينيه فجأةً، وهو مايزال مخدّراً من التعب، ومدهوشاً من هدوء الفتاة الساخر.

أجاب:

- أنا حاضرٌ، حاضر، ياآنسة. أمهليني فقط لأغسل وجهي وسوف أنزل.

- استعجلْ، فالساعة هي العاشرة. ثم إن لديّ مشروعاً كبيراً سأطلعك عليه، مؤامرة سنقوم بها. اعلمْ أننا سنتناول طعامنا في الحادية عشرة.

وجدها جالسة على مقعد، وعلى ركبتيها كتابٌ، إحدى الروايات. أمسكت ذراعه بألفة، بمودة، بصورة صريحة ومرحة- كأن لم يحدث شيءٌ عشية البارحة، وجرّته إلى طرف الحديقة:

- إليكَ مشروعي. سنَعْصي ماما، وستقودني، بعد قليل إلى «غرينوبير». أحب أن أراها، أنا. ماما تقول إن النساء الشريفات لايمكن أن يذهبن إلى هذا المكان. سيّان عندي إن ذهبن أو لم يذهبن. ستأخذني إليه، أليس كذلك، موسكاد؟

وسوف نَصْخب مع مجدّفي الزوارق.

كان ينبعث منها أريجٌ طيّبٌ، دون أن يستطيع تحديد تلك الرائحة المبهمة والخفيفة التي تحوم حولها. لم يكن عطراً من عطور أمها الثقيلة، لكنه كان نفحةً محتشمةً خيِّل إليه أنه استشعر فيها ظلاً من السوسن، وربما أيضاً قليلاً من رعْي الحمام.

من أين جاء هذا الأريج؟ من الفستان، أم من الشعر أو الجلد؟ كان يتساءل عن ذلك، وبينما كانت تكلّمه عن كثب، تلقّى في وجهه نَفَسها النديّ الذي بدا له أيضاً طيّباً عند التنفّس. حينئذ فكّر في أن ذلك العطر الهارب الذي سعى إلى تعرّفه ربما لم يكن موجوداً إلا أن تكون عيناها الساحرتان قد استحضرتاه، وأن يكون ضرباً من فيضٍ خداّعٍ لهذه الملاحة الشابة والفتّانة.

قالت:

- اتّفقنا، أليس كذلك، موسكاد؟ . . . فبما أن الجوّ سيغدو حاراً بعد الغداء لن تخرج ماما. فهي تتراخى في الجو الحار. سنتركها مع صديقك وستأخذني. والمفروض ان نصعد إلى الغاية. وأنت تعلم كم يسرّني أن أرى «لاغرينوبير».

بلغا الشبكة، قبالة السين. كان سيلٌ من أشعة الشمس يسقط على النهر الغافي واللّماع. وكانت ترتفع منه ضبابةٌ من الحرارة، دخان الماء المتبخّر الذي كان يضع على سطح النهر بخاراً طفيفاً ملتمعاً.

كان يمرّ زورقٌ، من وقت إلى آخر، زورق صغير أو قارب ثقيل، وكانت تُسمَع من بعيد صفّارات القطارات التي تصب، كلّ أحد، شعبَ باريس، في ريف الضواحي، وصفارات المراكب البخارية التي تُخطر باقترابها لعبور هويس «مارلي».

لكن جرساً صغيراً رنّ.

كان يُعلن عن موعد الغداء. فرجعا.

كان الغداء صامتاً. وكانت ظهيرة تموز الثقيلة تسحق الأشياء، وتضغط الكائنات. وبدت الحرارة كثيفةً تشلُّ العقول والأجسام. لم تخرج الكلمات المتخدّرةُ من الشفاه، وبدت الحركات شاقةً كأن الهواء غدا مقاوماً لها، وأصعب اختراقاً.

ايڤيت وحدها كانت تبدو، على صمتها، منتعشةً، عصبيّةً من نفاد الصبر.

ما إن انتهوا من الحلوى حتى سألت:

- ليتنا نذهب إلى الغابة لنتنزه. سيكون الجو لطيفاً جداً تحت الأشجار. تمتمت المركيزة التي ظهر عليها الإنهاك:

- أمجنونةٌ أنتِ؟ وهل يمكننا أن نخرج في مثل هذا الوقت؟

استأنفت الفتاة:

- طيّب! سنترك لك البارون في صحبتك. وسنتسلق، موسكادو أنا، السفح وسنجلس على العشب لنقرأ.

والتفتت إلى سيرفينيي:

- ما رأيك؟ موافق؟

أجاب:

- أنا في خدمتك، يا آنسة.

وركضت لتأخذ قبعتها.

هزّت المركيزة كتفيها وهي تتنهّد:

- إنها مجنونةٌ، حقاً.

ثم مدّت بتكاسل، وبتعب في حركتها العاشقة والكليلة، يدَها الجميلة والشاحبة للبارون، فقبّلها على مهلٍ.

ذهب سيرفينيي وايفيت. سارا أولاً مع ضفّة النهر، وعبر الجسر، ثم جلسا عند حافة النهر، من جهة ساعده السريع، تحت الصفصاف، لأن الوقت ما يزال مبكّراً من أجل الذهاب إلى «لاغرينوبير».

وما لبثتْ الفتاةُ أن أخرجت من جيبها كتاباً وقالت وهي تضحك:

- موسكاد، ستقوم أنت بالقراءة عليّ.

ندّت منه حركةُ تهرّب:

- أنا، يا آنسة. لكني لا أعرف القراءة.

أردفت برصانة:

- هيّا، لا عذر لك، ولا مبرّر. تُخيّل إليّ أنك فتى عاشق؟ كل شيء مقابل لا شيء، أليسَ كذلك؟ أهذا شعارك؟

تناول الكتابَ، وفتحه، فأخذته الدهشةُ، كان كتاباً في علم الحشرات، تاريخاً عن النمل لمؤلف انكليزي. ولمّا ظل ساكتاً، ظاناً أنها تهزأ منه، نفد صبرها، فقالت:

- هيّا، اقرأ.

سأل:

- أهي مراهنة أم مجرّد صَرْعة؟

- لا، يا عزيزي، لقيتُ هذا الكتاب عند بائع كتب، وقيل لي إنه خير كتابٍ عن النمل، وخطر لي أن من الممتع أن نعرف حياة هذه الحشرات الصغيرة ونحن نراها تجري على العشب، اقرأ.

استلقت بقامتها كلها، على صدرها، ومرفقاها مستندان إلى الأرض، ورأسُها بين يديها، وعيناها محدّقتان في العشب.

قرأ:

«لاشك أن القرود الشبيهة بالإنسان هي، بين جميع الحيوانات الأقربُ إلى الإنسان ببنيتها التشريحيّة؛ لكنا إذا تأملنا سلوك النمل، تنظيمها في مجتمعات، وجماعاتها الواسعة، والبيوت والطرقات التي تبنيها، وعادتها في تدجين الحيوانات، بل واستعبادها أحياناً، فنحن مضطرون إلى القبول بحقها في المطالبة بمكان لها قرب الإنسان في سلّم الذكاء...»

وتابع بصوتٍ رتيب، متوقّفاً من وقت إلى آخر ليسأل:

- ألا يكفي هذا؟

كانت تجيب «لا» برأسها؛ وإذ التقطت نملةً شاردةً على رأس قشّة من العشب اقتلعتها، أخذت تتسلّى بتمشيتها من طرف هذه الساق إلى طرفها الآخر، وذلك بأن تقلب الساق منذ أن تصل الحشرةُ أحد الطرفين. كانت تصغي بانتباهٍ مركّز وصامت إلى جميع التفاصيل المذهلة عن حياة هذه الحشرات النحيلة، عن مُنشآتها تحت الأرض، وعن طريقتها في تربية الأرقات وحبسها وتغذيتها لتشرب الشراب الذي تُفرزه، كما نربي الأبقار في اصطبلاتنا، وعاداتها في استخدام الحشرات الصغيرة العمياء التي تنظّف

قرية النمل، وخروجها للقتال لتجلب حشرات تستعبدها لتُعنى بالنمل المنتصر بكثير من الرعاية حتى ليفقد هذا النمل عادته في الأكل وحده.

وشيئاً فشيئاً، وكأن حناناً أمومياً استيقظ في قلب «ايڤيت» إزاء هذه الحشرة الشديدة الصغر والذكاء، أخذت تُصعدها على إصبعها، ناظرةً إليها نظرةَ تأثّر، وبها رغبةُ من تريد تقبيلها.

وبينما كان «سيرفينيي» يقرأ الطريقة التي تعيش بها النمل في جماعة، والتي تلعب بها فيما بينها، في صراعات وديّة من القوة والمهارة، تحمّست الفتاةُ فأرادت أن تقبّل الحشرة التي أفلتت منها وطفقت تجري على وجهها. حينئذ أطلقت صرخةً ثاقبةً وكأن خطراً داهماً يتهدّدها، وجعلت تلطلم وجهها لتطرد النملة. استبدّ بسرفينيي ضحكٌ جنوني، وأمسك بالنملة قرب شعرها وطبع في ذلك المكان قبلةً طويلة دون أن تبعد ايڤيت» جبينها.

ثم أعلنت وهي تنهض:

- أفضّل ذلك على الرواية. والآن هيّا إلى لاغرينويير».

بلغا ذلك القسمَ من الجزيرة المزروع كحديقة والذي تظلّله أشجارٌ ضخمة. كان فيها أزواجٌ يتسكّعون تحت الأغصان الباسقة، على طول السين، حيث تنساب القوارب. بناتٌ وشبابٌ، عاملاتٌ مع عشّاقهن الذين يمشون وستَرهُم الرسمية على أذرعهم، وقبّعاتُهم العالية مردودة إلى الخلف، وعليهم مظهر السُكارى المتعبين، وبرجوازيون مع أسرهم، النساء بثياب الأحد والأولاد ينطنطون، مثل الكتاكيت، حول الأهل.

أعلنت ضوضاء بعيدة ومتصلة من الأصوات البشرية، جلبةٌ بهيمة ومدويّة عن المركب العزيز على مجدّفي الزوارق.

شاهداه فجأة. كان مركباً ضخماً يعلوه سقفٌ، راسياً بحذاء الضفة، يحمل جمهوراً من الإناث والذكور جالسين إلى الطاولات يشربون، أو

واقفين يصيحون ويغنّون ويصرخون ويرقصون ويثبون على صوت بيانو نوّاح، نشاز، مرتجٍّ مثل آلة موسيقية رديئة.

وأخذت بناتٌ كبيراتٌ شقر الشعور يبسطن من الأمام ومن الخلف، إثارتهن المزدوجة لأعناقهن وأردافهن ويدرن بعيون شديدة التعلّق، وشفاه حمر، وهنّ ثملاتٌ ثلاثة أرباع الثمل، وعلى شفاههنّ كلماتٌ بذيئة.

وغيرهُنّ كن يرقصن بشغفٍ أمام رجال أشدّاء أنصاف عراة، يرتدون بنطالاً وقميصاً بحرياً داخلياً من القطن ويضعون على رؤوسهم قبعة كفرسان السباق.

وكان كل ذلك ينشر رائحة العرق وطحين الرز، روائح عطرية وروائح الإبط.

كان الشاربون، حول الطاولات، يزدردون أثريةً بيضاء وحمراء وصفراء وخضراء، ويزعقون بلا داعٍ، مستسلمين لحاجة مُلحّة إلى الصخب، حاجة الوحوش إلى أن تمتلىء آذانها وأدمغتها بالضوضاء.

ومن ثانية إلى أخرى، كان يقفز سبّاحٌ واقفٌ على السطح، إلى الماء، ناشراً وابلاً من الرذاذ على أقرب الشاربين الذين كانوا يزعقون زعاق المتوحشين.

على النهر كان أسطول من الزوارق يمرّ، وكانت الزوارق الطويلة والدقيقة تنساب، يسوقها مجدّفون عراة الأذرع بضربات المجذاف الواسعة. أما صاحبات الزوارق فكن في فستان من الفلانيلا الزرقاء أو الحمراء، وعلى الرأس مظلّة حمراء أو زرقاء أيضاً، مفتوحة، باهرة تحت الشمس الحامية، يتقلبن على مقاعدهن في مؤخرة القوارب، وكأنهن يركضن على الماء، في وضع ساكن وغافٍ.

كانت تأتي مراكب أثقل ببطء محمّلة بالناس. وعلى أحد الزوارق طالبٌ ثملٌ، يريد أن يتبختر، فيجدّف بحركات مثل جناحي الطاحونة،

ويصطدم بكل الزوارق فيصرخ به أصحابُها، ثم يتوارى وهو مهتاج، بعد أن أوشك أن يُغرق سبّاحيْن، وقد لاحقته انتهارات الجمهور المتكدس فوق ذلك المربّع العائم.

كانت «ايڤيت» مشرقةً، تمرّ متأبطة ذراع سيرفينيي، وسط هذا الجمهور الصاخب الخليط، وتبدو سعيدة بتلك الاحتكاكات المشبوهة، وتتفرّس البنات بنظرة هادئة ورقيقة.

- انظرْ إلى هذه، موسكاد، ما أجمل شعرها! يبدو عليهن أنهن يستمتعن كثيراً.

وبينما أخذ عازف البيانو، وهو صاحب زورق يرتدي ثياباً حمراء ويضع على رأسه قبّعةً من القش ضخمة تقي حرّ الشمس، يعزف «فالساً»، أمسكت ايڤيت فجأة برفيقها من خاصرتيه ودفعته بذلك الاندفاع الذي تصطنعه إذا رقصت. رقصا زمناً طويلاً ويجنون حتى أخذ الناس جميعاً ينظرون إليهما ووقف الشاربون على طاولاتهم وأخذوا يوقّعون بأقدامهم مع الايقاع الموسيقي؛ وآخرون قرعوا الكؤوس؛ وبدأ الموسيقيُّ كالمهووس يضرب الملامس العاجية بوثباتٍ من يده- وحركاتٍ مجنونة من جسمه كله، وهو يُرنّح بهياج رأسه الذي غطته قبّعتُه الضخمة.

وفجأة توقّف، وانزلق على الأرض، وانهار على طوله، مكفّناً بغطاء رأسه، وكأنه ميتٌ من التعب فانفجرت القهقهةُ في المقهى وصفّق الجميع.

هُرع أربعة أصدقاء كما يجري في الحوادث، ورفعوا رفيقهم، وحملوه من أطرافه الأربعة بعد أن حطّوا على صدره ذلك الضرب من السقف الذي كان يغطّي به رأسه.

تبعهم مهرّجٌ وهو يركض ورتّل ترتيلة الموتى: «من أعماق الهاوية»، وتشكّل موكبٌ خلف الميّت الكاذب، وانتشر على طرقات الجزيرة، جاراً وراءه الشاربين والمتنزهين، وجمع الأشخاص الذين التقوه.

انطلقت «ايفيت» مفتونةً، ضاحكة من كل قلبها، متحدثّة مع الجميع وقد هاجتها الحركةُ والضجة. أخذ الشبابُ ينظرون إليها في أعماق عينيها، ويزدحمون عليها، متلهّبين، وكأنهم يشمّونها، ويعرّفونها بالنظر؛ وبدأ سيرفينيي يخشى ألا تتحولَ المغامرة إلى ما لا تُحمد عقباه.

ظلّ الموكبُ يسير، مُسرعاً سيره، لأن حملةَ النعش الأربعة حثّوا الخطا وجروا، يتبعهم الجمهور الهادرُ. لكنهم اتجهوا فجأةً نحو ضفة النهر، ووقفوا رأساً عند وصولهم إلى النهر، ورجّحوا رفيقهم لحظةً، ثم أرخاه الأربعةُ في الوقت نفسه ورموه في النهر.

انبعثتْ صرخةُ الفرح من جميع الأفواه، بينما كان عازف البيان الذي خبُل يتخبّط ويجدّف ويسعل ويبصق الماء، ويحاول جاهداً، وهو غارقٌ في الوحل، أن يصعد إلى الضفة. وقد جرف التيّارُ قبّعته، فردها إليه أحد الزوارق.

أخذت «ايڤيت» ترقص من السرور وهي تصفّق بيديها وتردّد.

– أوه! موسكاد، كم يُسلّيني ذلك! كم يسلّيني ذلك!

كان «سيرفينيي» يراقبها، وقد عاد إليه جدُّه قليلاً، وخُدش قليلاً إذ رآها مرتاحةً إلى هذا الوسط الحقير. ثار فيه نوعٌ من الغريزة، غريزة ما هو لائق التي يحتفظ بها دائماً الإنسانُ الحسن المنشأ، حتى حين يترك نفسه على سجيّتها، هذه الغريزة التي تبعده عن الممازحات البالغة الدناءة والبالغة التدنيس.

كان يقول في نفسه وهو مدهوش:

عجباً! أنتِ أصيلة!

واشتهى أن يخاطبها بضمير المفرد، في الحقيقة، كما يخاطبها في فكره، وكما تخاطبُ النساء اللواتي يبذلن أجسادهن للجميع، منذ أول مرّة

يراهنّ فيها. لم يكد يميّزها عن النساء الشقراوات الشعر اللواتي كنّ يتحرّشن بهما ويصرخن بأصواتهن المبحوحة، كلمات بذيئة. كانت هذه الكلمات الفاحشة، القصيرة والرنانة تشيع في الجمهور وكأنها تحوّم فوقه، وقد وُلدتْ، في الداخل، كالذباب على النفاية. وكانت كأنما لاتصدم ولاتُدهش أحداً، ولم يظهر على «ايڤيت» أنها لاحظتها.

قالت:

- موسكاد، أريدُأن أسبح، وسنسبح في معظم النهر.

أجاب:

- أنا في خدمتك.

ومضيا إلى مكتب الحمامات ليحصلا على ثيات السباحة. نزعت ثيابها قبله، وانتظرته، على حافة النهر، باسمة تحت جميع الأنظار. ثم انطلقا جنباً إلى جنب في الماء الفاتر.

كانت تسبح بسعادة، بنشوة، تداعبها الموجةُ مرتعشةً من اللذة الحسية، مرتفعة عند كل ذراع وكأنها تريد أن تندفع خارج النهر. تبعها بمشقة، لاهثاً، مستاءً من إحساسه بأنه دونها. لكنها تريّثت، ثم استدارت فجأة، وسبحت على ظهرها، وهي مصالبةٌ بين ذراعيها مفتحة عينيها في زرقة السماء. كان ينظر، وهو متمددٌ هكذا على وجه الماء، إلى خطٍّ جسمها المتموج، ونهديها الصلبين اللاصقين بالقماش الرقيق، مبرزين شكلهما المدوّر وذروتيهما النافرتين والبطن الذي يعلو برفق، والفخذ الغارق قليلاً في الماء، وربلة الساق العارية، الملتمعة خلال الماء، والقدم اللطيفة التي تطفو.

رآها بكاملها، وكأنها إنما ظهرت عن قصدٍ، لتُغريه، لتبذل نفسها له أو لتتلاعب به أيضاً. وأخذ يشتهيها بلهفةٍ مشغوفة، وعصبية مهتاجة. وفجأة استدارت، ونظرت إليه وأخذت تضحك وقالت:

- أنت إنسانٌ طيّب .

قرصتْه هذه السخريةُ وأغضبته فتملكه غضبٌ خبيثٌ، غضبُ العاشق المُهان؛ حينئذ استسلم فجأة لحاجة غامضة إلى الانتقام، لرغبةٍ في أن يثأر، في أن يخرجها :

- وهل تلائمكِ هذه الحياة؟

فسألته بكل سذاجة :

- أية حياة؟

- دَعْكِ من هذا، لاتسخري مني- أنت تعلمين جيداً ماذا أقصد!

- لا، بالشرفِ، لا .

- هيا، لِتَنْتَهِ هذه الملهاة . أتريدين أم لاتريدين؟

- لستُ أفهمك .

- لستِ غبيةً إلى هذا الحدّ. ثم إني قلتُ لك ذلك أمس .

- وما هو، يا ترى؟ لقد نسيتُ .

- انني أحبكِ .

- أنت؟

- أنا .

- يا لها من مزحة!

- أقسم لك .

- حسناً، برهنْ على ذلك .

- لستُ أطلبُ سوى ذلك .

- ما الذي تطلبه؟

- أن أبرهن لكِ على ذلك .

- حسناً، برهنْ.

- لم تقولي مثل ذلك أمس مساء!

- لم تَعْرض عليّ شيئاً .

- هذه الحماقة!

- ثم إنك لا يجب أولاً أن تتوجّه بذلك إليّ.

- حلوةٌ هذه النكتة! ولمن أتوجّه؟

- إلى ماما، بالطبع .

انفجر ضاحكاً .

- إلى أمكِ؟ كلا، هذا فوق طاقتي!

وفجأة غدت جادةً جداً، ونظرت إليه في أعماق عينيه :

- اصغِ موسكاد، إن كنتَ تحبني حقاً الحب الكافي الذي يدفعك إلى الزواج مني، فكلّمْ ماما أولاً، وسأجيبك أنا بعد ذلك .

ظنَّ أنها عادت إلى الهزءِ منه، فثارت ثائرته :

- يا آنسة، أنت تُخطئين فهمي .

ظلت تنظر إليه بعينها الوادعة الصافية .

تردّدتْ ثم قالت :

- لستُ أفهمك بتاتاً .

حينئذ قال بحيوية وبشيء من الفظاظة والشر في صوته :

- هيّا، ايفيت، لننّه هذه الملهاة التي دامت زمناً طويلاً. أنت تمثّلين دور الصبيّة البلهاء، وهذا الدور لا يلائمك أبداً، صدّقيني. تعلمين جيداً أن الموضوع بيننا لا يمكن أن يكون موضوع زواج... بل هو حب. قلتُ لك إنني أحبك- وهذه هي الحقيقة- وأنا أكرّر ما قلتُ:

إنني أحبكِ. فلا تتظاهري بعدم الفهم ولاتعامليني كما يُعامل الأحمق.

كانا واقفين في الماء، وجهاً لوجه، مستندين فقط إلى حركات خفيفة من الأيدي. ظلّت بضع ثوانٍ جامدةً، كما لو أنها لم تستطع أن تعزم على النفاذ إلى معنى أقواله، ثم احمرّت فجأةً، احمرت حتى شعرها. وتضرجت سحنتُها على حين غرّة من عنقها إلى أذنيها اللتين أصبحتا بنفسجيتين تقريباً. وهربت نحو الأرض اليابسة دون أن تجيب بكلمة، سابحة بكل قوتها، بأذرع واسعة متسارعة.

لم يستطع إدراكها، وكان يلهث من التعب وهو يلحق بها.

رآها تخرج من الماء، تتناول مئزرها، وتقصد حجرة الحمام دون أن تلتفت وراءها.

تأخرّ طويلاً في ارتداء ملابسه، وهو شديد الحيرة فيما ينبغي أن يفعله، باحثاً عما سيقوله لها، متسائلاً إن كان ينبغي أن يعتذر أو يستمر في موقفه.

وعندما صار جاهزاً، كانت قد ذهبت، ذهبت وحدها. فعاد ببطء مهموماً ومضطرباً.

كانت المركيزة تتنزّه متأبطة ذراع سافال في الممر المستدير حول العشب.

وعندما رأتْ «سيرفيني» قالت بهيئة عدم الاكتراث التي حافظت عليها من عشية أمس:

- ألم أقل إنه لاينبغي الخروج في مثل هذا الحر. هذه ايڤيت عادت بضربة شمس، فذهبت لتنام. كانت مثل شقيقة النعمان، المسكينةُ. فلا شك أنكم تنزهتم في حرّ الشمس وارتكبتم حماقات. وما أدراني؟ فإنت قليل العقل مثلها.

لم تنزل الفتاةُ للعشاء. ولما أرادوا أن يحملوا إليها عشاءها أجابت عبر الباب أنها غير جائعة، لأنها اعتكفت في غرفتها، ورجتهم أن يدعوها وشأنها. وسافر الشابان في قطار الساعة العاشرة، وقد وعدا أن يعودا في الخميس التالي، وجلست المركيزةُ أمام نافذتها المفتوحة لتحلم، مصغية إلى أوركسترا حفلة أصحاب الزوارق، الآتية من بعيد، وهي تُطلق موسيقاها المنطنطة في صمت الليل المخيم الجليل.

وإذ كانت منجذبة إلى الحب وبالحب، كما ينجذب الإنسان إلى الخيل أو المجذاف، فإن طفحات من الحنان كانت تعتريها كالمرض. وكانت هذه الأهواء التي تتملكها بغتة تنفذ إليها كلها، وتستثير شجونها، وتستفزّها أو تُرهقها بحسب ما يكون طبعها مهتاجاً، أو عنيفاً، أو دراميّاً، أو عاطفياً.

كانت واحدة من أولئك النسوة اللواتي خُلقْن ليُحببن وليكنّ محبوبات. انطلقت من الحضيض، ووصلت بالحب الذي اتّخذته حرفةً، دون أن تعلم تقريباً، متصرفةً بغريزتها، بمهارة فطرية، فقبلت المال كالقبلات، بصورة طبيعية، من غير تمييز، مستخدمة حاسة شمّها الرائعة بصورة بسيطة لاتخضع للعقل، كما تفعل الحيوانات التي تجعلها ضروراتُ العيش مرهفةً. ولقد مرّ بين ذراعيها الكثير من الرجال دون أن تشعر نحوهم بأية محبة، ودون أن تحسّ أيضاً بأي اشمئزاز من عناقهم.

كانت تتحمّل احتضانهم بلا مبالاة مطمئنة، كما يأكل المرء، في

سفره، من جميع الطبخات لأنه يجب أن يعيش. لكن قلبها وجسدها كانا يلتهبان، بين حين وآخر، وكانت حينئذ تقع في هوى جامح يدوم أسابيع أو أشهراً، بحسب مزايا عشيقها الجسدية أو النفسية.

كانت هذه اللحظات هي اللحظات العذبة في حياتها. كانت تحبّ بكل نفسها، بكل جسدها، وباندفاعٍ ونشوةٍ. كانت ترمي بنفسها في الحب كما يرمي المرءُ بنفسه في النهر ليغرق، وتنجرف فيه، مستعدةً للموت إن لزم، ثملةً، متيّمة، سعيدة سعادة لانهاية لها. كانت تتخيّل، في كل مرة، إنها لم تحسّ بمثل هذا الشيء من قبل، وكانت ستدهش كثيراً لو ذُكِّرتْ بالعدد الكبير من الرجال المختلفين الذين حلمت بهم بولهٍ ليالي طوالاً، وهي تنظر إلى النجوم.

لقد أسرها «سافال»، أسرها جسداً ونفساً. كانت تفكّر فيه، تُهدهدها صورتُه وذكراه في الحُمّيا الهادئة للسعادة التامة، السعادة الحاضرة والمؤكّدة.

حملها صوتٌ خلفها على الالتفات. لقد دخلت «ايفيت» وهي ماتزال في ثيات النهار، لكنها شاحبةٌ الآن، ملتمعة العينين كما تلتمعان بعد التعب الطويل.

اتكأت على حافة النافذة المفتوحة، قبالة أمها. قالت:

- عندي كلامٌ لكِ.

نظرت إليها المركيزةُ مدهوشة. كانت تحبها حبّ الأم الأنانية، الفخورة بجمالها، كما يفخر الإنسانُ بالثروة! على أنها ماتزال رائعة الجمال فلم تشعر بالغيرة نحو ابنتها، شديدةَ اللامبالاة فلم تنقّد المشاريع التي تُنسب إليها، عظيمةَ الحذق فلم يغب عنها الشعورُ بتلك القيمة.

أجابت الأم:

- أنا مصغيةٌ إليكِ، يا ولدي، فما الأمرُ؟

نفذتْ «ايفيت» بنظرتها إليها، وكأنها تريد أن تقرأ في أعماق نفسها، وكأنها تريد أن تلتقط جميع الإحساسات التي ستوقظها كلماتُها.

- إليكِ ماجرى. لقد حدثَ قبل قليل شيءٌ غيرُ عادي.

- وما ذاك، يا تُرى؟

- قال لي السيد «دي سيرفينيي» إنه يحبّني.

كانت المركيزةُ قلقةً، تنتظر. وبما أن «ايفيت» كفّتْ عن الكلام، سألتها:

- كيف قال لكِ ذلك؟ أوضحي!

حينئذ جلست الفتاةُ عند قدمي أمها جلسةً غنجةً وهي جلسة ألفتها، وشدّت على يديها، وأضافت:

- طلب الزواجَ مني.

ندّت عن السيدة «اوباردي» حركةٌ نزقة من الذهول، وهتفت:

- سيرفينيي! لكنك مجنونة!

لم تَصرف «ايڤيت» عينيها عن وجه أمها، مراقبة فكرها ودهشتها. فسألت بصوت رصين:

- ولمَ أنا مجنونة؟ لماذا لايتزوّجني السيد «دي سيرفينيي»؟

تمتمت المركيزةُ وهي مرتبكة:

- أنت مخطئة، ذلك غير ممكن. فأنت لم تسمعي جيداً أو لم تفهمي جيداً. والسيد «دي سيرفينيي» مسرف الغنى بالنسبة إليكِ. . . وهو . . . باريسيّ مسرف في باريسيّته فلن يتزوّج.

نهضت «ايفيت» ببطء، وأضافت:

- لكن، إن كان يحبّني، كما يقول، ماما؟

أردفت أمُّها بشيء من نفاد الصبر:

- كنتُ أظنّك كبيرة ومتعلّمة إلى حدّ كاف يمنعك من تكوين هذه الأفكار. «سيرفينيي» منغمسٌ في لذّات العيش وأنانيّ. وهو لن يتزوج سوى امرأة من عالمه وبثرائه. وإذا كان قد طلبكِ للزواج. . . فذلك أنه يريد. . .

لم تستطع المركيزةُ أن تصرّح بشكوكها، فصمتتْ لحظةً، ثم استأنفت:

- اسمعي، دعيني وشأني، وامضي إلى النوم.

أجابت الفتاة بصوت وديع، وكأنها علمت الآن ما الذي ترغب فيه:

- نعم، ماما.

قبّلت أمَّها في جبينها وابتعدت بخطاً هادئة جداً. وبينما كانت توشك أن تجتاز البابَ، نادتها المركيزةُ، وقالت:

- وضربةُ الشمس التي أصابتك؟

- لم يكن بي شيءٌ. كان هذا هو ما أزعجني.

وأضافت المركيزة:

- سوف نتحدث في ذلك أيضاً. لكن، لاتبقى، بخاصة، وحيدةً

معه، من الآن إلى بعض الوقت. وكوني على يقين تام من أنه لن يتزوّجك أبداً، أتسمعين، وأنه لايريد! إلا . . . أن يلوّثك.

لم تجد ما هو أفضل من ذلك لتعبّر عن فكرتها. أوتْ «ايڤيت» إلى غرفتها.

أخذت السيدةُ «أوباردي» تفكّر.

ولمّا كانت تعيش منذ سنوات في طمأنينةٍ غرامية رخيّة، فقد أبعدت بعناية عنها جميع الخواطر التي تشغلها أو تقلقها أو تحزنها. ولم تشأ أن تتساءل قط ما مصير «ايڤيت». فسيكون التفكير في ذلك سابقاً لأوانه متى تصل الصعوبات. لقد أحسّت إحساساً قوياً بحاسة شمّ المومس أن ابنتها لايمكن أن تتزوج رجلاً غنياً، من عالم راق، إلا بطريق المصادفة غير المحتملة بتاتاً، إلا بمفاجأة من مفاجآت الحب التي تنصّب المغامِرات على العروش. لم تكن تحسب حساباً لذلك، وهي من جهة أخرى مشغولةٌ أعظم الشغل بذاتها حتى تخطّط لمشاريع لاتتعلّق بها.

ولاشك أن «ايڤيت» ستفعل ما فعلته أمُّها، ستكون امرأةً صالحةً للحب. ولمَ لا؟ ولكن المركيزة لم تجرؤ قط أن تتساءل متى وكيف سيتمّ ذلك.

وإذا بابنتها تطرح عليها، فجأةً، ودون إعداد، سؤالاً من تلك الأسئلة التي لاتمكن الإجابةُ عنها، وتجبرها أن تتخذ موقفاً في قضية صعبة جداً، دقيقة جداً، خطرة من كل الوجوه، ومشوّشة جداً لضميرها، الضمير الذي عليها أن تظهره عندما يتعلق الأمر بابنتهاو بهذه الأشياء.

كانت امرأة عظيمة الدهاء الطبيعي، الدهاء الهاجع، دون أن يغفو أبداً، حتى تفوتها، ولو لدقيقة واحدة، مقاصد «دي سيرفينيي»، لأنها خبيرة

بالرجـــال من هذا الجنس، ولذلك، صـــرخت. منذ الكلمـــات الأولى «لايفيت»، بالرغم منها تقريباً:

- سيرفينيي، يتزوّجك؟ لكنك مجنونة!

كيف استخدم هذه الوسيلة القديمة، ذلك الخبيث، المحتال، رجل الملذّات والنساء؟ وماذا سيفعل الآن؟ وكيف نحذّر الصغيرة بوضوح أكبر، بل وكيف نحميها؟ لأنها قد تنساق وراء حماقات فادحة.

أيمكن أن يُصدَّق أن هذه الفتاة الكبيـرة ظلت ساذجـة إلى هذا الحدّ، قليلة التعلم والحيلة إلى هذا الحد؟

فتّشت المركيزةُ، وهي حيرى قد أعياها التفكير، فتّشت عمّا يجب فعله، فلم تعثر على شيء، لأن الوضع بدا لها مربكاً حقّاً.

وإذ تعبت من هذه الهموم، فكّرت:

- باه! سوف أراقبهما عن كثب، وسوف اتصرّف تبعاً للظروف.

وإذا لزم الأمر حادثتُ «سيرفينيي» الذي هو نبيهٌ يفهم من الإشارة.

لم تتساءل عمّا قد تقوله له، ولا عما قد يجيب، ولا عن أي نوع من الاتفاق قد يقوم بينهما، لكنها كانت سعيدة بأنها تخفّفت من هذا الهم دون أن يلزمها اتخاذُ قرار، فعادت إلى التفكير بـ«سافال» الجميل، وأرسلت، وعيناها تائهتان في الظلام، ملتفتتان إلى اليمين، نحو ذلك الضياء الضبابي الذي يخيّم على باريس، أرسلت بيديها الاثنتين نحو المدينة العظيمة، قبلاتٍ سريعة، رمتها في العتمة، الواحدة فوق الأخرى، دون عدٍّ، وتمتمت بصوتٍ خافتٍ، كأنها ما تزال تكلّمه:

- أحبّكَ، أحبك!

-٣-

ايفيت أيضاً لم تنم. اتكأت بمرفقها على النافذة، واغرورقت عيناها بالدموع، الدموع الحزينة الأولى.

لقد عاشتْ حتى الآن وكبرت في هذه الثقة الطائشة والمطمئنة، ثقة الشباب السعيدة. ولم يكون عليها أن تشغل بالها وأن تفكر وأن تبحث؟ ولم لاتكون فتاةً ككل الفتيات؟ ولمَ يتتابها الشكُّ والخشيةُ والشُبُهات الشاقة؟

بدت كالمطّلعة على كل شيء لأنها بدت كأنما تتكلّم عن كل شيء، لأنها اصطنعت لهجة الذين يعيشون حولها ومظهرهم وكلماتهم الجريئة. لكنها لم تكد تعلم من ذلك أكثر ممّا تعلمه بنيّة تربّت في دير، إذ أن جسارة كلماتها أتت من ذاكرتها، من ملكة التقليد والتمثّل التي نجدها لدى النساء، ولم تأتِ من تفكير مطّلعٍ غدا جسوراً.

كانت تتحدث عن الحب كما يتحدّث عن الرسم أو الموسيقا ابنُ رسّامٍ أو موسيقي في العاشرة أو الثانية عشرةِ. كانت تعلم أو على الاصح كانت تظنّ أيّ نوع من السر تخفي هذه الكلمة - فالكثير من الفكاهات التي هَمَسَ بها الناس أمامها كان لا بدّ لها أن تُنوِّر براءتَها - لكن أنّى لها أن تستنتج من ذلك أن جميع الأسر لاتشبه أسرتها؟

كان الناس يقبّلون يدَ أمها باحترام ظاهر. وكان جميعُ أصدقاء الأسرة يحملون ألقاباً، وكانوا جميعاً أغنياء أو كانوا يبدون كذلك. كانوا جميعاً يُسمّون بألفةٍ أمراء من سلالة ملكية. بل إن ولدين من أبناء الملوك جاءا إلى بيت المركزة، عدة مرات، مساءً! فكيف يُرادلها أن تعلم!

ثم إنها كانت ساذجة، بصورة طبيعية. لم تكن تفتّش، لم تكن تتحرى الناس كما تفعل أمها. كانت تعيش هادئة، أعظم فرحاً بالحياة من أن

تقلق مما قد يبدو مشبوهاً لدى كائنات أكثر هدوءاً وتعقلاً وانغلاقاً، وأقل انفتاحاً وازدهاء.

لكن إذا بسير فينيي يُوقظ فيها، على حين غرّة، وببضع كلمات أحسّت بخشونتها دون أن تفهم تلك الخشونة، يوقظ فيها قلقاً مفاجئاً، غير منطقي في البدء، ثم فهماً معذِّباً.

لقد عادت، لقد فرّت كما يفرّ الحيوانُ الجريح، جريحةً، في الواقع، بتلك الكلمات التي كانت تردّدها على نفسها دون انقطاع، لكي تتغلغل إلى معناها كاملاً، لكي تستشفّ مداها كاملاً؛ «تعلمين جيداً أن الموضوع بيننا لايمكن أن يكون موضوع زواج . . بل هو حب؟»

ماذا عنَى بذلك؟ ولمَ هذه الإهانة؟ كانت تجهل إذن شيئاً ما، سراً ما، عاراً ما؟ ولاشك أنها تجهل ذلك وحدها. لكن ماهو؟ ظلّت مرتعبةً، ذاهلة، كما يقع عند اكتشاف عمل شائن مخفيّ، مثل خيانة الحبيب، مثل نكبة من نكبات القلب التي تُلقي بصاحبها في الجنون.

لقد شغلت بالها، وفكّرت، وفتّشت، وبكت، وعضتّها المخاوفُ والشكوك. ثم عادت نفسُها الشابةُ والفرحة الى السكينة، فأخذت تدبّر مغامرة، وتُعدّ لوضع غير عادي ودرامي، مكوّنٍ من جميع ذكريات الروايات الشعرية التي قرأتها. أخذت تتذكر تقلّبات الحوادث التي تهزّ العواطف، والقصص القاتمه المثيرة للحنان الذي تمزجه بها، وتجعل منها قصةً لها نفسها، تزيّن سرها الخفيّ الذي أخذ يلوح لها، والذي يلفّ حياتها.

كفّت عن التأسّف، وأخذت تحلم، وترفع الحجب، كانت تتخيّل تعقيدات غير محتملة الوقوع، وألف شيء فريد، رهيب، فتّان مع ذلك بغرابته.

أتكون، ابنةً طبيعيةً لأحد الأمراء، على سبيل المصادفة؟ وأمُها

المسكينة، التي أُغريتْ وهُجرت، والتي رفّعها ملكٌ، لعله الملك عمانويل، إلى مركيزة، قد اضطُرّت إلى الهرب أمام غضب أسرتها؟ ألم تكن بالأحرى، ابنةً لقيطة تركها والداها، والداها النبيلان الماجدان، لأنها ثمرة حب مجرم، والتقطتها المركيزةُ التي تبنّتها وربّتها؟

ومرّت بخاطرها أيضاً افتراضاتٌ أخرى. كانت تقبلها أو ترفضها تبعاً لهواها. كانت تتحنّن على نفسها، وهي سعيدة في أعماقها وحزينة أيضاً، وراضية على وجه الخصوص عن أن تصبح بطلة من بطلات الكتب تحبّ أن تبرز، أن تتخذ وضعاً، موقفاً نبيلاً، جديراً بها. وشرعت تفكر في الدور الذي ينبغي لها أن تلعبه، بحسب الأحداث التي تتكهّن بها. كانت ترى هذا الدور رؤية مبهمة، شبيهاً بشخصية السيد «سكريب» أو السيدة «ساند». وهو مكوّنٌ من الإخلاص والإباء وإنكار الذات وعظمة النفس، والحنان والكلام المعسول، وكانت طبيعتها المتحرّكة تبتهج تقريباً بهذا الموقف الجديد.

ظلّت حتى المساء تفكّر فيما ستفعله باحثةً كيف ستتصرّف لتنتزع الحقيقة من المركيزة.

وعندما جاء الليلُ المؤاتي للمواقف المأساوية، كانت قد دبّرت حيلة بسيطة وحاذقة لتحصل على ماتريد، وهي أن تقول بغتةً لأمها أن سيرفيني طلب الزواج منها. فإذا سمعت السيدة أوباردي هذا النبأ، أفلتتْ منها، وهي مدهوشة، كلمةٌ، صرخةٌ، تُلقي ضوءاً في فكر ابنتها.

مالبثت «ايفيت» أن نفذّت مشروعها. كانت تتوقّع انفجاراً من الدهشة، اندياحاً للحب، مناجاةً ملأى بالحركات والدموع.

وإذا بأمها لا يظهر عليها سوى التبرّم، دون أن تبدو مدهوشة أو متأسفة. وأدركت الفتاة التي استيقظ عندها فجأة كلُّ الدهاء والحذق والمكر الأنثوي، من اللهجة المتضايقة والمنزعجة والمضطربة التي أجابت بها أمها، أدركت أنها لاينبغي أن تُلحّ، وأن السرّ من طبيعة أخرى، وهو سرّ ستحمّلها

معرفته مشقةً أكبر، وأن عليها أن تستشفّه وحدها، فعادت إلى غرفتها، منقبضة القلب، كسيرة النفس، وأخذ يرهقها توجّسُ مصيبة حقيقية، دون أن تعلم بالضبط من أين ولاكيف جاءها هذا الانفعالُ. وبكت وهي مرتفقةٌ إلى نافذتها. بكت طويلاً، دون أن تفكّر في شيء، ودون أن تسعى إلى اكتشاف شيء آخر، وشيئاً فشيئاً أعياها التعبُ، فأغمضت عينيها، وأغفت حينئذٍ بضع دقائق، تلك الإغفاءة المتعبة التي تصيب الناس المُنهكين الذين لاطاقةَ لهم بخلع ثيابهم والتوجه إلى الفراش، تلك الإغفاءة الثقيلة التي تقطّعها أحلامٌ مباغتةٌ، عندما ينزلق الرأس بين اليدين.

لم تنم إلا عند ضياء النهار الطالع، عندما جمّدها بُرد الصباح وأجبرها على ترك النافذة.

احتفظتْ في اليوم التالي وفي اليوم الذي تلاه بموقف متحفّظ وكئيب. كان يجري فيها عملٌ متّصلٌ وسريع، عملُ التفكير: أخذت تترصّد، وتتكهّن وتحاكم. وبدا لها كأن ضياءً، مايزال مبهماً، ينير من حولها الناس والأشياء على نحوٍ جديد، وساورها الشك تجاه الجميع، تجاه كل ما اعتقدته من قبل، تجاه أمها. وافترضت، في هذين اليومين جميع الافتراضات. ونظرت في جميع الإمكانات، مرتميةً في القرارات الأشدّ تناقضاً، بنزق طبيعتها المتقلبة التي لاتعرف الاعتدال. في نهار الاربعاء وضعت خطةً، قاعدةً كاملة للسلوك، وأسلوباً للتجسّس. ونهضت في نهار الخميس صباحاً وهي عازمةٌ على أن تكون أكثر دهاءً من الشرطي، ومسلحةً لمحاربة جميع الناس.

بل انها قرّرت أن تتخذ شعاراً لها هاتين الكلمتين: «أنا وحدي»، وسعت في مدى أكثر من ساعة لمعرفة كيف ينبغي أن ترتّبهما ليحسُن وقعهما، حين تُنقشان قرب أحرف اسمها الأولى، على ورق الرسائل.

وصل «سافال»و «سيرفينيي» في الساعة العاشرة. مدّت الفتاةُ يدها بتحفّظ، دون ارتباك، وقالت بلهجة أليفة، وإن كانت رصينة:

ـ صباح الخير، موسكاد، كيف الحالُ؟

ـ صباح الخير، آنسة، لابأس، وأنتِ؟

أخذت تراقبه وتقول في نفسها:

ـ ما التمثيلية التي سيمثلها عليّ؟

ولما أمسكت المركيزةُ بذراع سافال، أمسك هو بذراع «إيفيت»، وأخذوا يدورون حول العشب، ظاهرين ومختفين في كل لحظة، خلف الأجمات والأشجار.

كانت «ايفيت» تسير وقد بدت متعقّلة، رزينة، ناظرة إلى رمل الممر، وكأنها لاتكاد تسمع ما يقوله رفيقها، دون أن تجيبه.

وفجأة سألت:

ـ أأنت حقاً صديقي، موسكاد؟

ـ كيف لا، ياآنسة.

ـ لكن هل أنت صديقي حقاً، حقاً، بالحق الذي لاحقّ بعده.

ـ صديقك كلياً، يا آنسة، جسداً ونفساً.

ـ حتى إنك لن تكذب عليّ ولو مرّة واحدة، مرة واحدة فقط.

ـ بل ومرتين إن لزم الأمرُ.

ـ حتى إنك ستقول لي الحقيقة كلها، الحقيقة القذرة كاملةً.

ـ نعم، يا آنسة.

ـ طيب، ما رأيك، في الحقيقة، في الحقيقة الخالصة، بالأمير كرافالو؟

ـ آه! ياللشيطان!

ـ أرأيت أنك أخذت تتهيأ للكذب!

ـ كلاّ، لكنني أبحثُ عن الكلمات، الكلمات الصحيحة جداً.
ياالهي، الأمير «كرافالو» روسي . . . روسي حقيقي، يتكلم الروسية، وقد وُلد في روسيا، ولعل معه جواز سفر ليأتي إلى فرنسا وليس فيه شيءٌ مزيَّفٌ سوى اسمه ولقبه

نظرت إليه في أعماق عينيه.

ـ أردتَ أن تقول إنه . . . . ؟

ـ تردّد ثم قرّر أن يجيب:

ـ مغامرٌ، ياآنسة.

ـ شكراً والفارس فالريالي، ليس بأفضل منه، أليس كذلك؟

ـ أنت قلت ذلك.

ـ والسيد «دي بيلفينيي»؟

ـ هذا، شيء آخر. هذا رجلٌ من العالم الراقي. . . من المقاطعة . . . جديرٌ بالاحترام إلى حدٍّ ما . . . لكنه مُفلسٌ لفرط مجونه . . .

ـ وأنت؟

أجاب بلا تردّد:

ـ أنا، أنا محبّ للقَصْف كما يُقال، شاب من أسرة كريمة كان له قسطٌ من الذكاء فأفسده بسراب الكلمات، وكان له حظٌّ من الصحة فضيّعه في الفجور، وكان له شيءٌ من القيمة ربما فبدّده بعطالته. وكل مابقي لي من ذلك كله شيءٌ من الثراء، ومن التجربة العملية، والغياب التام للأحكام المسبقة، والاحتقار العريض للناس بمن فيهم النساء والشعور العميق جداً بعدم جدوى أفعالي، والتسامح الواسع للنذالة العامة. ومايزال لي، من حين إلى حين، بعض الصراحة، كما ترين، بل إني قادر على المحبة كما قد

ترين. وبهذه النقائص والمزايا، أضع نفسي يا آنسة، تحت اوامرك نفسياً وجسدياً لكي تتصرّفي بي على هواك، هذا كل ما في الأمر.

لم تضحك؛ كانت تصغي فاحصةً الكلمات والمقاصد.

أردفْت:

ـ مارأيك بالكونتيسة دي لامي؟

قال بحيوية:

ـ اسمحي لي ألاّ أبدي رأيي بالنساء.

ـ بأية امرأة؟

ـ بأية امرأة.

ـ إذن . . . أنتَ تحكم عليهن حكماً سيّئاً . . . عليهن جميعاً. هيّا، فتّشْ، ألستَ تستثني منهن؟

ضحك هازئاً ضحكه الوقح الذي يكاد يحافظ عليه باستمرار، مع تلك الجرأة القاسية التي يتّخذ منها قوّة، سلاحاً:

ـ إنما يُستثنى دائماً الأشخاصُ الحاضرون.

احمرّت قليلاً، لكنها سألت بهدوءٍ بالغ:

ـ حسناً، وما رأيك بي؟

ـ أتريدين رأيي؟ ليكنْ. أرى أنك شخصٌ عظيم الحسّ عظيم التجربة أو إذا شئت عظيم الحسّ العملي، شخصٌ يحسن أن يُشوّش لعبه، وأن يلهو بالناس وأن يُخفي نظراته، وأن ينصب شباكه وينتظر، دون عجلة . . . الحدثَ.

سألتْ:

ـ هذا كل شيء؟

حينئذٍ قالت برصانة جادة:

– سأجعلكَ تغيّر هذا الرأي، موسكاد.

ثم دنت من أمها التي كانت تمشي بخطاً وئيدة

خافضة رأسها، تلك المشية الواهنة التي يمشيها الناسُ عندما يتحدّثون بصوت خافت، وهم يتنزهون، عن أشياء جد حميمة وجدّ عذبة. كانت ترسم، وهي تسير، أشكالاً على الرمل، لعلها رسائل، برأس مظلتها، وتتكلم دون أن تنظر إلى سافال، تتكلم طويلاً، ببطء، وهي متكئة على ذراعه، شادّة نفسها إليه. شخصت «ايفيت» بعينيها إليها، مرّ ببالها شكٌ جدّ مبهم لم تصغْه بوضوح، بل هو بالأحرى إحساس وليس شكاً، مرّ كما يمرّ على الأرض ظلُّ سحابةٍ تطردها الريحُ.

رنّ جرسُ الغداء.

ظلَّ صامتاً كالحزين.

كان الجوُّ مؤذناً بالعاصفة، كما يقال. السحبُ الضخمة الساكنة بدت كامنةً في أعماق الأفق، خرساء وثقيلة لكنها محمّلة بالعاصفة.

سألت المركيزةُ منذ أن تناولوا القهوة على المصطبة:

– حسناً! يا حبيبتي، هل ستخرجين إلى النزهة اليوم مع صديقك «سيرفينيي»؟ فهذا الطقس صالح للتبرّد تحت الأشجار.

ألقت عليها «ايفيت» نظرةً عجلى سرعان ما لوتْها عنها:

– لا، ماما، لن أخرج اليوم.

بدت المركيزة متضايقةً، فألحّتْ:

– اذهبي ودوري دورةً، يا بنتي، فهذا نافعٌ لك.

حينئذٍ قالت «ايفيت» بصوت نزقٍ:

- لا، ماما سأبقى اليوم في المنزل، وأنتِ تعلمين جيداً لماذا، لأني أخبرتكِ بذلك في المساء الفائت.

لم تعد السيدة «اوباردي» تفكرّ في ذلك إذ شغلتْها الرغبة في أن تظل وحيدة مع سافال. فاحمرّتْ واضطربت، وقالت وقد ألمّ بها القلقُ لذاتها، ولم تدر كيف يمكنها أن تكون حرّةً ساعةً أو ساعتين:

- صحيح، لم أفكّر في ذلك، الحقُّ معك، لا أدري أين كان رأسي.

وتناولت «ايفيت» شغلاً لتطريز كانت تسمّيه «السلامة العامة». تشغل به يديها خمس مرات أو ستاً في العام، في أيام الهدوء المسطّح، وجلست على كرسي منخفضة قرب أمها، بينما جلس الشابان على كرسيّين تُطوبان، وهما يدخّنان السيجار.

كانت الساعات تمرّ في أحاديث كَسْلى لاتني تذبل. كانت المركيزة تلقي على «سافال»، نظرات ولَهى، وهي متوفّزة الأعصاب، وتبحث عن ذريعة لابعاد ابنتها. وأدركت في النهاية أنها لن تُفلح، فقالت لـ «سيرفيني» بعد أن عجزت عن استخدام الحيلة:

- تعلمُ، يا عزيزي الدوق، أنني سأستبقيكما كليكما هذا المساء. وسنذهب للغداء غداً في مطعم «فورنيز» في «شاتو».

فهم، وتبسّم، وانحنى، وقال:

- أنا بأمرك مركيزة

انقضى النّهارُ ببطءٍ ومشقة، تحت تهديدات العاصفة.

جاءت ساعةُ العشاء شيئاً فشيئاً. كانت السماءُ المطبقة تمتلئ بالسحب البطيئة والمتثاقلة. ولم تكن تمرّ على الجلد نفحةُ هواء.

كانت وجبةُ المساء صامتةً أيضاً. كان يبدو أن ضيقاً، ارتباطاً، ضرباً من الخوف المبهم قد أخرس الرجلين والمرأتين.

عندما رُفع الطعامُ ظلوا على المصطبة، لا يتحدّثون إلا لماماً. هبط الليلُ، ليلٌ خانق وفجأة، تمزّق الأفقُ، مزّقه قوسٌ معقوف منَ نار، أضاء بشعلته الباهرة البيضاء الوجوه الأربعة التي كانت غارقةً في الظلمة. ثم مرّ على الأرض، صوتٌ بعيد، صوت بهيم وضعيف، شبيه بسير عربة على جسرٍ، فكأنما تعاظم الجوُّ، وغدا الهواءُ بغتة أكثر إرهاقاً، وصمتُ المساءِ أشد عمقاً.

نهضت «ايفت»، وقالت:

– سأذهب إلى النوم، فالعاصفة تؤذيني.

مدّت جبينها للمركيزة، ومدّت يدها للشابين وانصرفت.

ولمّا كانت غرفتها فوق المصطبة بالذات، استضاءت أوراق شجرة كستناء كبيرة مزروعة أمام الباب، بضياء أخضر على الفور، وظلّ سير فينيي، شاخصاً إلى ذلك الضوء الشاحب في الأوراق، حيث خُيِّل إليه أنه رأي ظلاً يمرّ. لكن النور انطفأ فجأة. وأرسلت السيدة اوباردي تنهيدة طويلة. قالت:

– لقد نامت ابنتي.

نهض سير فينيي.

– وسأنام أنا أيضاً، مركيزة، إن سمحتِ.

قبّل اليد التي مدّتها إليه وغاب بدوره.

ظلت وحدها مع «سافال» في الليل.

وما لبثت أن صارت بين ذراعيه تطوّقه وتضمّه. ثم جثتْ أمامه، مع حرصه على أن يمنعها من ذلك، وهي تهمس: «أحب أن أنظر إليك على ضوء البروق».

لكن «ايفيت» ما إن أطفأت شمعتها، حتى عادت إلى الشرفة، حافية القدمين، منسلّة كالظل، تصغي ويقْرضها شكُّها المؤلم والغامض.

لم تكن تستطيع أن ترى، إذ كانت فوقهما على سطح المصطبة ذاتها.

لم تكن تسمع شيئاً سوى همس الأصوات. وكان قلبها يخفق بشدة حتى ملأ أذنيها بالضجيج. انغلقتْ نافذةٌ فوق رأسها. لقد صعد «سيرفيني» إذن. وظلت أمها وحدها مع الآخر.

شقّ السماء شقّين برقٌ ثانٍ، وأظهر في مدى ثانية كلّ ذلك المشهد الذي تعرفه، وسط ضياء عنيف وكئيب: شاهدت النهر الكبير، بلون الرصاص الذائب، كما نحلم بالأنهار في في بلادٍ عجيبة. وما لبثت أن سمعت تحتها صوتاً يقول: «أحبّك».

ثم لم تسمع شيئاً بعد ذلك. إذ سرتْ في جسمها رعشةٌ، وطفتْ روحُها في اضطراب مخيف.

خيّم على الكون صمتٌ ثقيل، لا نهاية له، وكأنه الصمت الأبدي. عجزت عن التنفّس، وانضغط صدرُها بشيء مجهول وفظيع. وأشعل الفضاءَ برقٌ آخر أضاء الأفق لحظة، وتبعه على الفور برقٌ آخر، وبروقٌ أخرى أيضاً. اشتدّ الصوتُ الذي سمعته قبل قليل، وأخذ يكرّر: أوه! كم أحبكَ! كم أحبكَ. عرفت «ايفيت» هذا الصوت جيداً، صوت أمها.

سقطت على جبينها قطرةُ ماء كبيرة فاترة! وتمشّتْ بين الأوراق حركةٌ خفيفة لا تكاد تُحسُّ، ارتعاش المطر الذي أخذ يهطل.

ثم أقبلت ضوضاء مسرعةً من بعيد، ضوضاء مختلطة، شبيهة بحفيف الريح في الأغصان؛ كان ذلك وابلاً من المطر ثقيلاً، عُباباً، انهلّ على الأرض، وعلى النهر، وعلى الأشجار. وفي بضع ثوان سال الماءُ من حولها، وغطّاها، ولطّخها برشاشه، ونفذ إليها كأنه الحمّام. فلم تتحرك، وظلت تفكّر فيما يفعلانه على المصطبة.

سمعتهما ينهضان ويصعدان إلى غرفتهما. أُغلقتْ أبوابٌ داخل المنزل- أندفعت الفتاةُ إلى الدرج، خاضعةً لرغبةٍ في المعرفة لا تُقاوم، رغبةٍ أفقدتها صوابها وعذّبتها، ففتحت الباب الخارجي برفق، ومرت على العشب تحت هطل المطر العاصف، وجرت لتختبئ في أيكةٍ ولتنظر إلى النوافذ.

كان نافذةٌ واحدةٌ مضاءة، نافذة أمها. وفجأة، ظهر ظلان في المربع المضيء، ظلان جنباً إلى جنب. ثم اقترب أحدهما من الآخر حتى صارا ظلاً واحداً، وألقى برقٌ جديد على الواجهة حزمةً نارية سريعة وباهرة، فرأتهما يتعانقان وقد طوّق كل منهما الآخر.

حينئذٍ صرخت بكل قوتها، وهي مهتاجة، ودون تفكير، ودون أن تعلم ماذا تفعلُ: «ماما!» كما يصرخ الناس لينبّهوا على خطر الموت.

ضاع نداؤها اليائس في بقبقة الماء، لكن الزوجين المتضامّين افترقا، قلقين. اختفى أحدُ الظلين، وأخذ الظلُّ الآخر يحاول أن يُميّز شيئاً عبر ظلمات الحديقة.

إذ ذاك خشيت «ايفيت» أن تُفاجأ، أن تُصادف أمّها في هذه اللحظة، فانطلقت إلى المنزل، وصعدت الدرجَ على عجل، مخلّفة وراءها مساحب الماء الذي سال منها من درجة إلى درجة، وحبست نفسها في غرفتها، مصمّمةً ألا تفتح بابها لأحد. جثتْ على ركبتها دون أن تنزع فستانها الذي يسيل ماؤه واللاصق بها، وهي تضمّ يديها، مبتهلة في ضنكها تلتمس حمايةً من فوق الطبيعة، عوناً خفياً من السماء، المساعدة المجهولة التي نطلبها في ساعات الدموع واليأس.

كانت البروقُ العظيمة ترمي بين اللحظة والأخرى ببريقها الكابي في غرفتها فترى نفسها بغتةً في مرآة خزانتها، بشعرها المحلول والمبلّل، غريبة إلى الحد الذي لم تعرف نفسها فيه.

ظلّت هاهنا زمناً طويلاً، طويلاً جداً حتى نأت العاصفة دون أن تفطن لذلك. توقّف المطرُ عن الهطل، واجتاح الضياءُ السماء التي ما تزال الغيوم تحجبها، ودخلت الغرفة من النافذة، نداوةٌ فاترة، لذيذة، عذبة، نداوة الأعشاب والأوراق المبلّلة.

نهضتْ «ايفيت» وخلعت ملابسها اللينة والباردة، دون أن تفكر فيما تفعل، واضطجعت في سريرها. ثم ظلت شاخصة العينين إلى النهار الطالع. ثم بكت، ثم فكّرت. «أمها! وعشيقها! يا للعار! لكنها قرأت كثيراً من الكتب، تستسلم فيها النساءُ، بل الأمهات، ليعود إليهن شرفهن في صفحات الحلّ. وهي لا تدهش دهشة زائدة من أن تجد نفسها مغمورة بهذه الفاجعة الشبيهة بفواجع قراءاتها.

إن عنف حزنها الأول، ورعب المفاجأة القاسي، أخذا يخفّان قليلاً عند الذكرى المشوّشة لمواقف مشابهة. لقد طاف فكرها في مغامرات جدّ مأساوية، ساقها الروائيون على نحوٍ شعري، حتى لقد بدا لها الاكتشافُ الفظيع شيئاً فشيئاً كأنه التأكيد الطبيعي لمسلسلٍ بدأ البارحة. قالت في نفسها: سوف أُنقذ أمي.

عادت إليها سكينتُها تقريباً بهذا القرار، قرار البطلة، فأحسّت بنفسها قويةً، مستعدة لإنكار الذات وللصراع. وفكّرت في الوسائل التي ينبغي لها أن تستخدمها. وسيلةٌ واحدة بدت لها صالحة، ومتوافقة مع طبيعتها الحالمة. وهيّأت، كما يهيئ الممثلُ المشهد الذي سيمثّله، هيّأت الحديث الذي ستّجريه مع المركيزة.

طلعت الشمس. ودار الخدمُ في المنزل وجاءت الخادمةُ بالشوكولاتة. أمرت «ايفيت» بوضع الصينيّة على الطاولة وقالت:

- قولي لأمي إني موجوعة، وأني سألزم فراشي حتى ذهاب السيدين، وأني لم أستطع النوم في الليل، وأني أرجو ألا يزعجني أحد، لأنني سأحاول أن أستريح.

أخذت الخادمةُ المدهوشة تنظر إلى الفستان المبلّل والواقع مثل خرقةٍ على السجّادة. وقالت:

- هل خرجت الآنسة؟

- نعم، تنزّهتُ في المطر لأتبرّد.

لمّت الخادمةُ التنانير، والجوارب، والأحذية الوسخة، ثم انصرفت حاملةً على ذراعيها وباحتراس الاشمئزاز، هذه الثياب المبلّلة كأنها أسمال الغريق. انتظرت «ايفيت» وهي تعلم أن أمها سوف تأتي. دخلت المركيزةُ، بعد أن وثبت من سريرها عند الكلمات الأولى التي قالتها الخادمة، لأن شكّها ظلّ قائماً منذ أن سمعت تلك الصرخة: «ماما»، التي سمعتها في العتمة. قالت:

- ما بكِ؟

نظرت إليها ايفيت وتمتمت:

- بي... بي... ثم تملكها انفعال مباغتٌ ورهيب، فأخذت تختنق.

سألتها المركيزة المدهوشة مرةً أخرى:

- ما بكِ، يا ترى؟

حينئذٍ نسيتْ الفتاةُ كلَّ مشاريعها وجملها التي هيّأتها، فخبّأت وجهها بين يديها، وهي تتمتم:

-أوه! ماما، أوه! ماما!

ظلت السيدةُ «اوباردي» واقفة أمام السرير وهي منفعلة انفعالاً شديداً منعها من الفهم، لكنها حزرتْ كلَّ شيء تقريباً، بتلك الغريزة المرهفة التي منها تأتي قوّتها.

ولمّا لم تستطع ايفيت الكلام، وقد خنقتها الدموع، سألتها أمّها بعد أن ثارت عصبيتها في النهاية وشعرت بدنوّ الاستيضاح المخيف:

– هيّا، هلا قلتِ لي ماذا دهاك؟

لفظتْ «إيفيت» بعد لأي:

– أوه! هذه الليلة... رأيت... نافذتك.

قالت المركيزة وهي شاحبةٌ جداً:

– حسناً! وماذا أيضاً؟

– أوه! ماما، أوه! ماما!.

هزّت السيدة «اوباردي» كتفيها، بعد أن تحوّل خوفُها وارتباكها إلى غضب، واستدارت لتنصرف:

– أعتقد حقاً أنك مجنونة. وإذا انتهيت مما أنت فيه فأخبريني بما أصابكِ.

فجأة، أبرزت الفتاة وجهها الذي سال الدمع عليه، من بين يديها، وقالت:

– لا... اسمعي... يجب أن أكلّمك... اسمعي... عديني... سنسافر كلتانا، بْعيداً جداً، إلى الريف، وسنعيش مثل فلاحتين. ولن يعلم أحدٌ ماذا حلّ بنا! قولي، أتقبلين، ماما، أرجوك، أتضرّع إليك، أتقبلين؟

بقيت المركيزةُ وسط الغرفة وقد أُرتج عليها. كان في عروقها دمٌ شعبي، دمٌ سريع الغضب. ثم إن الخجل، وحياء الأم امتزجا بشعور الخوف وباحتداد امرأةٍ مولّهة يُهدَّد حبُّها، فأخذت ترتعش، وهي مستعدةٌ لأن تطلب الصفح أو أن تندفع في عنفٍ ما. قالت:

– لستُ أفهمكِ.

استأنفت «ايفيت»:

– رأيتكِ... ماما... هذه الليلة... لا يجب... لو كنتِ

تعلمين. . . سوف نسافر كلتانا. . . وسأحبّك كثيراً حتى تنسيْ. . . قالت السيدة «اوباردي» بصوت متهدّج:

– هناك أشياء لا تفهمينها حتى الآن. . . حسناً. . . لا تنسيْ. . . لا تنسيْ. . . أنني أمنعكِ. . . أن تكلميني أبداً. . . عن. . . عن. . . عن هذه الأشياء.

لكن الفتاة استأنفت فجأةً دورها، دور المنقذة، الذي ألزمتْ به نفسها، فقالت:

– لا، ماما، لم أعد طفلةً، ولي الحق في أن أعلم. فأنا أعلم أننا نستقبل ناساً سيئي السمعة، مغامرين، وأعلم أيضاً أننا لا نُحترَم بسبب ذلك. وأعلمُ أشياء أخرى أيضاً. ينبغي ألا يكون ذلك بعد الآن، أتسمعينني؟ لا أريد. سنسافر. تبيعين جواهركِ. وسنعمل إن لزم الأمرُ، وسنعيش عيشة امرأتين شريفتين، في مكانٍ ما، بعيدٍ جداً. وإذا ما عَرضَ لي الزواجُ، فذلك أفضل. . .

نظرت إليها أمها بعينٍ سوداء، غاضبة، وأجابت:

– أنت مجنونةٌ. أدخلي السرور إلى نفسي وانهضي وتعالي لتتناولي طعامك مع الجميع.

– لا، ماما. هناك شخصٌ لن أراه بعد الآن، أتفهمينني. أريد أن يخرج، وإلا خرجتُ أنا. اختاري بينه وبيني.

جلست في سريرها ورفعت صوتها، وتكلّمت كما يتكلم الممثلونَ على خشبة المسرح، وقد دخلت في التمثيلية التي حلمت بها، ناسيةً حزنها تقريباً ومتذكّرة مهمتّها وحدها.

ذهلت المركيزةُ وردّدت مرةً أخرى:

- لكنك مجنونة . . .

ولم تجد ما تقوله غير ذلك .

استأنفت «ايفيت» بقوةٍ مسرحيّةٍ .

- لا ، ماما ، هذا الرجل يجب أن يترك المنزل وإلا تركتُهُ أنا ، لأنني لن ألين . . .

- وأين ستذهبين؟ . . . وماذا ستفعلين؟ . . .

- لا أدري ، ولا يهمني ذلك . . . أريد أن نكون امرأتين شريفتين .

هاتان الكلمتان اللتان تكرّرتا : «امرأتين شريفتين» أثارتا في المركيزة غضباً كغضب العاهرات وصاحت :

- اسكتي! لا أسمح لك بأن تتكلمي هكذا . وأنا لا أقلّ قيمةً عن غيري . أنا مومسٌ ، هذا صحيح ، وأنا فخورة بذلك ؛ والنساء الشريفات لسن بأفضل مني .

ذهلت «ايفيت» فنظرت إليها وتمتمت :

- اوه! ماما!

لكن المركيزة تحمّست واستشاطت

- نعم ، أنا مومسٌ . وبعد؟ لو لم أكن مومساً لكنت أنت اليوم طاهيةً ، كما كنت أنا قديماً ، ولكان أجرك ثلاثين فلساً في اليوم ، ولغسلتِ الصحون ، ولأرسلتك معلمتُك إلى اللّحام ، أتسمعين؟ ولطردتك لو تسكّعتِ ، بينما أنت تتسكعين طَوال النهار لأني مومسٌ . وتلك هي الحالَ إذا لم تكنِ المرأةُ سوى خادمة ، بنت مسكينة وفرُها خمسون فرنكاً . علينا أن نخلّص أنفسنا إذا شئنا ألا نهلك من الجوع ؛ وليس أمامنا سبيلان . ليس لدينا سبيلان إذا كنا خدماً ، أتسمعين! لسنا نستطيع أن نجمع ثروة في وظائف أو في سمسرة البورصة . ليس لدينا سوى جسدنا ، لا شيء سوى جسدنا .

ضربت صدرها كما يفعل التائب الذي يعترف، وتقدّمت نحو السرير وهي مضرّجةٌ، متحمّسةٌ:

- ليكنْ! إذا كانت البنتُ جميلةً. فلا بدّ أن تعيش من ذلك، وإلا تألّمت من الشقاء طوال حياتها... طوال حياتها... لا خيار. ثم عادت بغتةً إلى فكرتها:

- ومع ذلك، فهنّ لا يحرمن أنفسهن من ذلك؛ النساءُ الشريفات. وهنّ العاهرات، أتسمعين. ؟ إذ لا شيء يجبرهن. لديهن المال ولديهن ممّا يعشن ويتلهّين به، وهنّ يعاشرن الرجالَ عن عيبٍ فيهن. هن العاهراتُ.

كانت واقفة قرب سرير «ايفيت» تائهة اللب، تشتهي أن تصرخ: «النجدة» وأن تهرب، وهي تبكي بصوتٍ عالٍ كالأطفال الذين يُضربون.

سكتت المركيزةُ، ونظرت إلى ابنتها، ورأتها وقد نفذ إليها الألم والندم والتحنّن والشفقة، فارتمت على السرير وهي تفتح ذراعيها، وأخذت تنتحب، وتمتمت:

- يا صغيرتي المسكينة، ياصغيرتي المسكينة، ليتكِ تعلمين كم تؤلمينني.

وبكتا كلتاهما طويلاً. ثم إن المركيزة التي لا يثبتُ الحزنُ فيها، نهضت برفق وقالت بصوت خفيض:

هيا يا حبيبتي، الأمورُ هكذا، ماذا تريدين! لا حيلة لنا ولا نستطيع تغيير شيء الآن. يجب أن نقبل بالأشياء كما تأتينا.

ظلت «ايفيت» تبكي. لقد كانت الصدمة مسرفة القسوة، مسرفة المباغتة فلم تتمكن من التفكير ومن أن يهدأ روعُها.

أردفت أمُّها:

- هيا، انهضي وتعالي لتناول الطعام، حتى لا يفطن أحدٌ لشيء.

أومأت الفتاة برأسها أن «لا»، ولم تستطع الكلام؛ وأخيراً قالت بصوت بطيء مفُعم بالنحيب:

- لا، ماما، عرفت ما قلتهُ لك، ولن أغيّر رأيي. لن أخرج من غرفتي قبل أن ينصرفا. لا أريد أنَ أرى أحداً من هؤلاء الناس، أبداً، أبداً. وإذا ما عادا فلن تريني بعد ذلك.

مسحت المركيزةُ دموعها، وهمست وهي متُعبةٌ من الأنفعال:

- هيّا، فكّري، وكوني عاقلة.

ثم قالت بعد دقيقة صمت:

- نعم، الأفضل أن تستريحي هذا الصباح. وسآتي للقائك بعد الظهر.

قبلّت ابنتها في جبينها، وخرجت لترتدي ثيابها، وقد هدأت.

نهضت «ايفيت» بعد أن توارت أمّها، وركضت لتقفل الباب كي تكون وحدها، ثم أخذت تفكّر.

قرعتْ الخادمةُ الفرَاشةُ الباب في نحو الحادية عشرة وسألت عبر الباب:

- السيدةُ المركيزةُ تسأل إن كانت الآنسة بحاجة إلى شيء وماذا تطلب لغدائها.

أجابت «ايفيت»:

- لستُ جائعةً. أرجو فقط ألا يزعجني أحدٌ.

ولزمت الفراش كما لو كانت مريضة جداً. في نحو الساعة الثالثة قُرع البابُ من جديد:

- مَنْ الطارق؟

كان الصوتُ صوتَ أمها

- هذا أنا، يا حبيبتي، جئتُ لأرى كيف حالك.

ترددتْ. ماذا تفعل؟ فتحت الباب وعادت فاضطجعت. اقتربت المركيزةُ، وتكلمت بصوت خفيض كأنها تتكلم قرب ناقهةٍ:

- حسناً، أتجدين نفسك أفضل؟ ألا تريدين أن تأكلي بيضةً؟

- لا، شكراً، لا أريد شيئاً.

جلست السيدة قرب السرير. مكثتا دون أن تقولا شيئاً، ثم لما ظلت ابنتُها ساكتةً ويداها بلا حراك على الغطاء، قالت:

- ألا تريدين أن تنهضي؟

أجابت «ايفيت»:

- بلى، بعد قليل.

ثم أضافت بلهجة رصينة وبطيئة:

-فكّرتُ طويلاً، ماما، وهذا هو... هذا هو قراري. الماضي هو الماضي. لكن المستقبل سيكون مختلفاً... وإلا... وإلا فأنا أعرف ما يبقى عليّ أن أفعله. ولْنُنْهِ، منذ الآن، البحث في هذا الموضوع.

أحسّت المركيزة التي كانت تظنّ الاستيضاح منتهياً، بشيء من نفاد الصبر يُلمُّ بها. أصبح الأمر لا يُطاق الآن. إن هذه الدجاجة البرية، ابنتها. كان عليها أن تعلم منذ زمن بعيد. لكنها لم تجب وكرّرت:

- هلا نهضت؟

- نعم، أنا مستعدّة.

حينئذ اتّخذت أمُها من نفسها خادمةً لها، فحملت إليها جوربيها، وصدارها، وتنانيرها، ثم قبّلتها:

- هل تريدين أن تقومي بجولة قبل العشاء.

- نعم، ماما.

ومضتا إلى النزهة. بحذاء الماء،

-٤-

في اليوم التالي، منذ الصباح، ذهبت «ايفيت» لتجلس في المكان الذي قرأ لها فيه «سيرفينيي» قصة النمل. قالت في نفسها:

- لن أنصرف من هنا قبل أن أتّخذ قراراً.

كان الماءُ يجري، أمامها، عند قدميها، الماءُ السريع في ساعد النهر المتدفّق، المليء بالدوّامات، بالفقاعات العريضة التي تمرّ هاربة هروباً أخرس مع دورانات عميقة.

استعرضتْ وجوه الموقف كافةً، وجميع الوسائل للخروج منه.

ماذا ستفعل لو أن أمها لم تتقيدّ تقيّداً دقيقاً بالشرط الذي اشترطته، ولم تتخلَّ عن حياتها، عن عالمها، عن كل شيء، لتذهب فتختبئ معها في بلد بعيد؟

يمكنها أن تذهب وحدها... أن تهرب. لكن إلى أين؟ وكيف؟ ومّ تعيش؟ بأن تعمل؟ ماذا تعمل؟ وإلى مَنْ تتوجّه لتجد عملاً؟ ثم إن حياة العاملات الكئيبة والمتواضعة، حياة بنات الشعب كانت تبدو لها مخجلةً، غير جديرة بها. فكّرت في أن تصبح معلّمة، مثل شبّان الروايات، وأن تحب وتتزوج بابن صاحب الدار. لكن كان لا بدّ لها أن تكون من نسبٍ رفيع وأن تتمكن، عندما يلومها الأبُ الذي ثارت ثائرتُه لأنها سرقتْ ابنه، أن تقول له بصوتٍ مُفاخرٍ:

- أنا أُدعى «ايفيت اوفاردي»!

لم تكن تستطيع ذلك. ثم إن هذه الوسيلة وسيلة تافهة وبالية أيضاً.

لم يكن الدير أفضل من ذلك. وهي، من ناحية أخرى، لم تكن تحسّ

بأي ميلٍ فطري نحو الحياة الدينيّة، إذ لم يكن تقاها سوى تقىً متقطّع وعابر. ولا يمكن لأحد أن يُنقذها حين يتزوّجها، وهي على ما هي عليه! ولا عونَ مقبولٌ من أي رجلٍ ولا مخرج ممكنٌ، ولا مورد نهائي!

ثم إنها تريد شيئاً شديداً، شيئاً عظيماً حقاً، قوياً حقاً، يكونُ مثلاً يُحتذى؛ فأزمعت على الموت. قرّرت الموت فجأة، بهدوء، وكأن المقصود سفرٌ، دون أن تفكر، دون أن ترى الموت، دون أن تفهم أنه النهاية التي لا بداية جديدة له، الذهاب بلا رجعة، الوداع الأبدي للأرض وللحياة.

تهيّأت مباشرةً لهذا القرار الأقصى بخفّة النفوس المتحمّسة والشابة.

وفكرّت في الوسيلة التي ستستخدمها. لكن جميع الوسائل بدت لها شاقّة التنفيذ غير مأمونة، وهي تتطلب فوق ذلك عملاً عنيفاً تأنف منه.

أقلعت بسرعة عن فكرة الخنجر والمسدّس اللذين يمكنهما أن يجرحا ويشلان أو يشوّهان، واللذين يتطلّبان يداً متدرّبة وموثوقة- كما أقلعت عن الحبل الذي هو شائع، انتحار الفقير، انتحار بشع ومضحك- وعن الماء لأنها تعرف السباحة. بقي السمُّ إذن، لكن أيّ سم؟ جميع السموم تقريباً تثير أوجاعاً وغثيانات. وهي لا تريد أن تتوجّع ولا أن تتقيأ. حينئذ خطر ببالها «الكلوروفورم» إذ أنها قرأت في أحد الأخبار كيف فعلت امرأةٌ شابة لتخنق نفسها بهذه الطريقة.

وسرعان ما شعرت بنوع من الفرح بقرارها، بالكبرياء الصحيحة، بإحساس من الافتخار سيرى الناس كيف كانت، وما قيمتها.

عادت إلى «بوجيفال» وقصدت الصيدليَّ الذي طلبت منه شيئاً من الكلوروفورم من أجل سنٍّ آلمها. أعطاها الرجلُ الذي يعرفها زجاجةً صغيرةً من المخدّر.

وحينئذٍ ذهبت مشياً إلى «كروازي» حيث حصلت على قمقم آخر من السم. وحصلت على ثالث في «شاتو» ورابع في «رويل» وعادت للغداء متأخرة. كم جاعت بعد هذه الجولة، فأكلت كثيراً بشهوة مَنْ أسغبه التمرين.

سعدت أمُّها حين رأتها جائعة هكذا، فأحسّت بالهدوء أخيراً، وقالت لها وهما ينهضان عن المائدة:

- جميع أصدقائي سيأتون ليقضوا نهار الأحد عندنا. دعوتُ الأمير، والفارسَ والسيد «دي بيلفينبي».

شحبت «ايفيت» قليلاً، لكنها لم تجب. خرجت على الفور تقريباً، وقصدت المحطة، واشترت بطاقة لباريس.

وطوال ما بعد الظهر تنقّلت من صيدلية إلى صيدلية، مشترية من كل واحدة بضع قطرات من الكلوروفوّرم. رجعت مساءً وجيوبها ملأى بزجاجاتٍ صغيرة.

عادت في اليوم التالي إلى هذه الحيلة، وإذ دخلت مصادفةً دكّان عطار استطاعت أن تحصل دفعةً واحدةً على ربع لترٍ.

لم تخرج نهار السبت، كان يوماً غائماً ودافئاً قضته كلّه على المصطبة، متمدّدة على كرسي بحّري من السوحر.

لم تكن تفكّر تقريباً في شيءٍ، وهي عاقدةٌ العزم ومطمئنة. في اليوم التالي، ازدانت بزينة زرقاء لاءمتها جداً، لأنها أرادت أن تكون جميلة جداً.

وعندما نظرت إلى نفسها في المرآة قالت في نفسها، على حين غرّة:

- غداً، سأكون ميتةً- وسرت في جسدها رعشةٌ فريدةٌ- ميتةً! لن أتكلم بعد ذلك ولن أفكر، ولن يراني بعدُ أحدٌ. وأنا لن أرى بعدُ شيئاً من كل هذا.

أخذت تمعن النظر في وجهها، وكأنها لم تشاهده من قبل، فاحصةً على الخصوص عينيها، مكتشفةً ألف شيءٍ فيها، سمةً خفيةً من هيئتها لم تكن تعرفها، مدهوشة من رؤيتها لنفسها، وكأنها بأزاء شخصٍ غريبٍ، صديقةٍ جديدة.

كانت تقول في نفسها

- هذه أنا، هذه أنا في هذه المرآة. ما أغرب أن ينظر الإنسانُ إلى نفسه. وبلا مرآة لن نعرف أنفسنا أبداً. الجميع يعرفون كيف نحن، ونحن لا نعرف ذلك بتاتاً.

أمسكت بخصلات شعرها المجدولة في ضفائر وجذبتها إلى صدرها، متابعةً بنظرتها جميعَ إيماءاتها وأوضاعها وحركاتها.

فكّرتْ:

-كم أنا جميلة. وغداً سأكون ميتةً، هنا، على سريري.

تطلّعت إلى سريرها، وبدا لها أنها كانت ترى نفسها متمدّدة، بيضاء مثل غطاء السرير.

- ميتة. وفي مدى ثمانية أيام، لن يكون هذاالوجه، هاتان العينان، هاتان الوجنتان، سوى عفونة سوداء، في علبة، في أعماق الأرض.

انقبض قلبُها بحسرة فظيعة. كانت الشمس الوضّاءة تُصبّ أشعتها على الريف وكان نسيم الصباح العذب يُدخل من النافذة.

جلست وهي تفكّر في ذلك: ميتة.

- فكأن العالم سيختفي بالنسبة إليها؛ كلا، إذ لا شيء سيتغيّر في هذا العالم، حتى ولا غرفتها. أجل ستظل غرفتها كما هي مع السرير نفسه، والكراسي نفسها، وطاولة الزينة ذاتها، لكنها ستمضي إلى الأبد، ولن يحزن

أحدٌ عليها، ما عدا أمّها، ربما. سوف يُقال: «ما كان أجملها! «ايفيت» الصغيرة»! هذا كل شيء. وبينما كانت تنظر إلى يدها المستندة على ذراع المقعد خطرت ببالها مرة أخرى تلك العفونة، تلك العجينة السوداء والنتنة التي سيتحول إليها لحمُها. ومرةً أخرى، سرت في جسدها كله الرعشةُ، رعشةُ الرعب الفظيعة، ولم تفهم كيف يمكنها أن تزول دون أن تزول الأرض بكاملها، لفَرْط ما بدا لها أنها جزءٌ من كل شيء، من الريف والهواء والشمس والحياة.

انفجرت في الحديقة ضحكاتٌ، جليةٌ عظيمةٌ من الأصوات، والنداءات، ذلك المرحُ الصاخبُ في النزهات الريفيّة التي بدأت، وتعرّفت الصوت المدوّي صوت السيد «دي بيلفيني» الذي كان يغنّي:

«أنا تحت نافذتكِ

آه! تنازلي واظهري لي.»

نهضت دون تفكير وجاءت تتطلّع.

صفّق الجميع. كانوا خمستُهم هنا، مع سيّدين آخرين لا تعرفهما.

تراجعت فجأةً، وقد مزّقتها هذه الفكرةُ وهي أن هؤلاء الرجال جاؤوا يلهون عند أمها، عند مومسٍ.

قرع جرس الغداء. قالت في نفسها:

– سأريهم كيف يموتُ الناسُ.

هبطت بخطاً ثابتة، بشيء من تصميم الشهيدات المسيحيات الداخلات إلى الحلبة حيث تنتظرهن الأسودُ.

شدّت على الأيدي وهي تبشّ بلطف، لكن بشيء من التعالي. سألها «سيرفينيي»

- أأنتِ أقل تذمّراً اليوم، ياآنسة؟

أجابت بلهجةٍ قاسية وفريدة:

- اليوم سأُقدم على حماقاتٍ. أنا في مزاجي الباريسي. فخذ حذركَ.

ثم التفتت إلى السيد «دي بيلفينيي»:

- أنتَ ستكون مرافقي، خمرتي اللطيفة. سآخذكم جميعاً بعد الغداء إلى احتفال «مارلي». كان الاحتفال، في الواقع «في مارلي». قُدِّم إليها الوافدان الجديدان، الكونت «دي تامين»، والمركيز «دي بريكيتو».

لم تكد تتكلم أثناء الطعام، موتّرةً إرادتها لتكون مرحةً بعد الظهر، حتى لا يستشفّ أحدٌ شيئاً، لتزداد الدهشةُ، ولكي يقال: - من فكّر في ذلك؟ كانت تبدو سعيدة جداً، مسرورة جداً! ما الذي يجري في هذه الرؤوس؟ بذلت وسعها لكي لا تفكر في المساء، في الساعة المختارة، حين يكونون جميعاً على المصطبة.

شربت ما استطاعت من النبيذ لتوطّد عزمها، وشربت كأسين صغيرتين من الشمبانيا الفاخرة، وكانت محمرّة وهي تترك المائدة، وقد طاش عقلها قليلاً، إذ شعرت بالدفء في جسمها وروحها، كما بدا لها، وغدت جسورةً الآن ومصمّمة على كل شيء.

صاحت:

- لِنسرْ في طريقنا!

أمسكت بذراع السيد «دي بيلفينيي» ونظمت سير الآخرين.

- هيا، ستشكّلون كتيبتي! سيرفينيي، عيّنتُكَ عريفاً؛ وابقَ على اليمين، خارج الصف. ثم سيّره على رأس الصف الحرس الأجنبي، الغريبين، الأمير والفارس، وخلفهما المجندين اللذين تسلّما سلاحهما

اليوم. هيّا. انطلقوا. أخذ «سيرفينيي» يقلّدنا فخ البوق، بينما تظاهر الوافدان الجديدان بأنهما يقرعان الطبل، قال السيد «دي بيلفينيي» بصوتٍ خفيضٍ، وهو مرتبكٌ قليلاً،

- آنسة «ايفيت»، مهلاً كوني عاقلة، ستعرّضين سمعتك للخطر.

- إنما أعرّضك أنتَ، «ريز ينية». أما أنا فقلّما أبالي. ولن يظهر ذلك هنا غداً. لا يجب أن تخرجوا مع بناتٍ مثلي. فعلى أنفسكم تجنون.

اجتازوا «بوجيفال» وسط ذهول المتنزهين. أخذ الجميع يلتفتون؛ وخرج الأهالي إلى أبوابهم. وصاح بهم مسافرو القطار المار من «رويل» إلى مارلي». وكان الرجال الواقفون على مصاطبهم يصرخون:

- إلى الماء! . . . إلى الماء! . . .

سارت «ايفيت» بخطاً عسكرية ممسكة «بيلفينيي» من ذراعه، كما يقاد السجينُ. لم تكن تضحك بتاتاً محتفظة بالرصانة الشاحبة على وجهها، بنوع من السكون الكئيب. وكان سيرفينيي يقطع تبويقه لكي يزعق بأوامره. ووجد الأمير والفارس الكثير من التسلية في ذلك؛ وجدا ذلك طريفاً جداً ورفيع الذوق. وكان الشابان يقرعانِ الطبل على نحو متواصل.

عندما وصلوا إلى مكان الاحتفال، أثاروا الانفعال. صفّقت بناتٌ، وضحك شبابٌ مستهزئين؛ وأعلن رجلٌ يقدّم ذراعه لامرأته بشيء من الغيرة:

- هؤلاء ممّن لا يُزعجهم شيء.

شاهدت جياداً من الخشب وأجبرت «بيلفينيي» أن يمتطي جواداً إلى يمينها بينما كان فوجه يتسلق الحيوانات الدائرة من الخلف. وعندما انتهى دورُ اللهو، رفضت النزول، وأجبرت مرافقيها على البقاء خمس مرات متتابعة على ظهر هذه الجياد الخشبية، مع اغتباط الجمهور الذي كان يصرخ بمزحاته. وأصيب السيد «دي بيلفينيي» الداكن الوجه بالغثيان حين نزل.

ثم أخذت تشرد عبر التخشيات. وأجبرت جميع رجالها على أن يَزِنوا أنفسهم وسط حلقة من المشاهدين، وأن يشتروا لعباً مضحكة اضطروا إلى حملها بين أيديهم. بدأ الأمير والفارس ينظران إلى المزحة على أنها قد تجاوزت الحدّ. سيرفينيي والطبّالان فقط لم تخمد همّتُهم.

وصلوا أخيراً إلى نهاية المكان. حينئذ تأمّلت تابعيها على نحوٍ فريد، بعين ماكرة وخبيثة؛ وخطرت ببالها نزوةٌ غريبّةٌ؛ صفّتهم على الجرف اليميني المشرف على النهر. وقالت:

- مَنْ أحبَّني أكثر من غيره فَلْيَرْمِ بنفسه إلى الماء.

لم يقفز أحدٌ. تشكّل تجمّعٌ خلفهم. نظرت نساء في مآزرهن بذهول. كان جنديان، ببنطال أحمر، يضحكان بغباء.

ردّدت:

- وإذن فليس بينكم من هو قادر على الارتماء في الماء بناءً على رغبتي؟ تمتم «سيرفينيي»:

- إن كان لا بدّ، فليكن...

واندفع، وهو واقف، إلى النهر.

نشر سقوطه رشاشاً في الماء حتى قدمي ايفيت. وعلا في الجمهور همسُ الدهشة والمرح.

حيئنذٍ تناولت الفتاة من الأرض قطعةً خشبيةً ورمتها في التيار، وصاحت:

- هاتِها!

أخذ الشاب يسبح، وأمسك بفمه الخشبة الطافيةَ، كما يفعل الكلبُ، وحملها، ثم صعد إلى الضفة، وجثا بركبةٍ على الأرض ليقدّمها. أخذتها «ايفيت» وقالت:

- أنت جميلٌ.

وداعبت شعره بيد مُلاطفة. أعلنت سيدةٌ ضخمة وهي ساخطة:

- أممكنٌ هذا!

وقالت أخرى:

- أيمكن أن يلهو الناسُ هكذا!

وقال رجل:

- غيري يسبح من أجل آنسة!

تعلّقتْ مرة أخرى بذراع «دي بيلفينيي»، ورمته بقولها:

- ما أنت سوى غبيّ، يا صاحبي؛ إنك لا تعلم ما فوّتّ على نفسك.

رجعوا. كانت ترمي المارة بنظرات غضبى. تقول:

- ما أبلد هؤلاء الناس.

ثم رفعت عينيها إلى وجه رفيقها:

- وأنت أيضاً، فوت ذلك.

حيّاها السيد «دي بيلفينيي». وإذ استدارت رأت أن الأمير والفارس اختفيا. كفّ «سيرفينيي» عن التبويق، وهو مقطّبٌ يتصبّب ماءً، ويسير حزيناً بجانب الشابين المتعبين اللذين أقلعا عن التطبيل.

أخذت تضحك بجفاف:

-يبدو أنكم مللتم. ومع ذلك فهذا ما تدعونه تسليةً، أليس كذلك؟ جئتم من أجل ذلك؛ وقد منحتكم من التسلية مقابل مالكم.

ثم مشت دون أن تقول شيئاً بعد ذلك، وفجأة لمح «بيلفينيي» أنها تبكي. فسألها وهو خائف:

- ما بكِ؟

تمتمتْ:

- دعني، هذا لا يَعْنيك.

لكنه ألح كالأحمق:

- أوه! آنسة، مهلاً، ما بكِ؟ هل أساء إليكِ أحدٌ؟

فكررّت وصبرُها نافذٌ:

- هلا سكتَّ!

ثم عجزت عن مقاومة الحزن اليائس الذي أغرق قلبها، فأخذت تنتحب بغتةً بعنفٍ شديد حتى أنها لم تستطع التقدّم.

غطّت وجهها بيديها وهي تلهث مع حشرجات في حنجرتها، وقد اختنقت، خنقها عنفُ يأسها.

ظل «بيلفينيي» واقفاً، بجنبها، ذاهب اللب، مردداً:

- إني لا أفهم شيئاً من ذلك.

لكن سيرفينيي تقدّم فجأةً:

لنِعدْ، آنسة، يجب ألا يراك الناسُ تبكين في الشارع. لماذا تُقْدمين على هذه الحماقات ما دام ذلك يُحزنكِ؟

وأمسك بها من مرفقها فسحبها. لكنهم ما أن وصلوا إلى حاجز الدارة المشبّك. حتى أخذت تركض. واجتازت الحديقة، وصعدت الدرج، واعتكفت في غرفتها. لم تظهر إلا في ساعة العشاء، شاحبة جداً، رصينة جداً. بيد أن الجميع كانوا مرحين. فقد اشترى «سيرفينيي» من عند تاجر محلي ثيابَ عاملٍ، وبنطالاً من المخمل، وقميصاً بأزهار، وكنزةً، وبلوزةً، وأخذ يتكلم مثل أبناء الشعب.

كانت ايفيت تستعجل انتهاء الطعام، إذ أحسّت بشجاعتها تخور. وما إن تناولوا القهوة حتى صعدت إلى غرفتها.

كانت تسمع الأصوات الفرحة تحت نافذتها. كان الفارس يمزح مزحاً خليعاً، تلاعباتٍ لفظية للأجانب، غليظة وخرقاء.

كانت تصغي وهي يائسة. وكان «سيرفينيي» الذي داخله السُكْر، يقلد العامل السكّير، ويدعو المركيزة «المعلمة». وفجأة قال لسافال:

- ايه! يا معلم!

فعمَّ الضحكُ. حينئذٍ صمّمت ايفيت. تناولت أولاً ورقةً من دفتر الرسائل وكتبتْ: «بوجيفال، هذا الأحد، الساعة التاسعة مساءً» «أموتُ لكي لا أكون امرأة يُنفق عليها خليلُها.»

ايفيت

ثم كتبت في الحاشية:

«وداعاً، ياماما العزيزة، وعفواً»

وأغلقت المغلّف الموجّه إلى السيدة المركيزة «اوباردي».

ثم سحبت كرسيّها البحريّ إلى جانب النافذة، وجرّت طاولة صغيرة إلى متناول يدها ووضعت فوقها زجاجة الكلوروفورم الكبيرة بجانب قبضة من القطن. كانت شجرةُ وردٍ ضخمة مغطّاة بالورود صاعدة من المصطبة إلى نافذتها تنشر في الليل أريجها العذب والضعيف الذي كان يهبّ بنفحات خفيفة؛ ظلّت بضع دقائق تتنفّسه. كان القمر في ربعه الأول يطفو في السماء السوداء، المقروضة قليلاً إلى اليسار، والمغشّاة أحياناً بالضباب الرقيق.

كانت «ايفيت» تفكرّ

- سوف أموت! سوف أموت!

خنقها قلبُها المتهيّئ للنحيب، المهدود بالحزن. كانت بحاجةٍ إلى أن تطلب الرحمة من أحدهم، ، أن تُخلّص، أن تُحبّ.

علا صوتُ «سيرفينيي». كان يروي قصة ماجنةً تقطّعها الضحكات بين لحظة وأخرى. وكان المرح الذي يخالج المركيزة أقوى من مرح الآخرين. وكانت تردّد بلا انقطاع:

– ما من أحدٍ غيره قادر على التفوّه بمثل هذه الأشياء. آه! آه! آه!

تناولت «ايفيت» الزجاجة، وفتحتها، وصبت قليلاً من السائل على القطن. انتشرت رائحةٌ قوية، سكّرية، غريبة؛ بينما كانت تقرّب من شفتيها قطعة القطن، ابتلعت على حين غرة هذا المذاق الواخز والمهيّج الذي جعلها تسعل.

حينئذ، أغلقت فمها، وأخذت تتنشّقه. كانت تشرب بسحبات طويلة هذا البخار المميت، مغلقة عينيها، وباذلة وسعها لكي تُخمد فيها كلّ فكرة، لكي تكفّ عن التفكير، لكي لا تعلم شيئاً

بدا لها أول الأمر أن صدرها يعرض ويتّسع، وأن نفسها التي كانت قبل قليل ثقيلةً، يؤودها الحزنُ، تغدو خفيفة، خفيفةً، وكأن الثقل الذي كانت ترزح تحته قد رُفع، وخُفّف، وطار.

نفذ إليها حتى نهاية أطرافها شيءٌ حيوي سارٌ، نفذ حتى نهاية قدميها ويديها، وولج لحمها، نوعٌ من السكْر الغامض، من الحمّى العذبة.

شاهدت القطن جافاً فتعجبّت من أنها لم تمت بعد. بدا لها أن حواسّها قد شُحذت وأُرهفت واستُفزّت.

كانت تسمع حتى أدنى الكلمات الملفوظة على المصطبة. كان الأمير «كرافالو» يروي كيف قتل في المبارزة جنرالاً نمساوياً.

ثم استمعت إلى الأصوات الآتية من الريف، من بعيد في الليل؛ النِباح المتواصل لكلب، صوت الضفادع القصير، ارتعاش الأوراق الذي لا يُحس.

تناولتْ الزجاجة مرةً أخرى، وبللتْ مرة أخرى قطعة القطن، ثم أخذت تتنفس. وفي مدى بضع دقائق. لم تعد تحسّ بشيء؛ ثم إن ذلك الهناء البطيء والفاتن الذي اجتاحها من قبل عاد فتملكها.

صبّت مرتين من الكلوروفورم على القطن، وقد غدت نهمةً إلى ذلك الإحساس الفيزيائي وذلك الإحساس النفسي، إلى ذلك الفتور الذي تاهت فيه نفسُها.

أحسّت كأنها غدت بلا عظام، بلا لحم، بلا ساقين، بلا ذراعين. نُزِع منها ذلك كله دون أن تفطن. لقد أفرغ الكلوروفورم جسمها، ولم يبق لها سوى فكرها وهو أكثر يقظةً، وأكثر حياةً، وأكثر اتساعاً، وأكثر حرية مما شعرتْ به قط.

تذكّرت ألف شيء منسيٍّ، تفاصيل صغيرة من طفولتها، وأشياء تافهة كانت تسرّها. لقد أخذ فكرُها الذي أُوتي فجأةً رشاقةً غير معهودة، يقفز بين شتّى الخواطر، ويجوب آلاف المغامرات، ويشرد في الماضي، ويتيه في أحداث المستقبل المرجوّة. وكان لفكرها النشيط والخامل سحراً حسّياً؛ كانت تشعر، وهي تفكّر هكذا، بسرور إلهي.

ظلت تسمع الأصوات، لكنها لم تعد تميّز الألفاظ التي كانت تتّخذ لديها معاني أخرى. كانت تغوص وتتيه في ضربٍ من عالم الجنّ الغريب والمتنوّع.

كانت على ظهر سفينةٍ عظيمة تمرّ بحذاء بلدٍ جميل مغطّى بالأزهار. كانت ترى الناس على الشاطئ، وكان هؤلاء الناس يتكلمون بشدّة، ثم رأت نفسها على الأرض دون أن تتساءل كيف؛ وجاء سيرفيني وهو بلباس الأمير يبحث عنها ليصطحبها إلى قتال الثيران.

كانت الشوارع ملأى بالمارّة الذين يتحدثون، وكانت تصغي إلى هذه

الأحاديث التي لم تُدهشها، وكأنها تعرف الأشخاص، لأنها عبّر سكرها كانت ما تزال تسمع أصدقاءَ أمها على المصطبة يضحكون ويتحدّثون.

ثم غدا كل شيء مبهماً. ثم أفاقت وقد خدرت خدراً لذيذاً، ولقيت شيئاً من المشقّة لتتذكر. وإذن فهي لم تتذكّر بعد.

لكنها أحسّت أنها مستريحةٌ جداً، في هناء فيزيائي، في عذوبة فكرية، لم تكن تستعجل للتخلص منهما. وودّت لو تُطيل هذه الحالة من الإغفاء الشهيّ.

كانت تتنفّس ببطء وتنظر إلى القمر، في مواجهتها، على الأشجار. تغيّر شيءٌ في فكرها. لم تعد تفكّر كما كانت تفكّر قبل قليل. ذلك أن الكلوروفورم حين ألان جسمها ونفسها، هدأ عَنَاءَهَا، ونوّم عَزْمَها على الموت.

لمَ لا تعيش؟ لمَ لا تكون محبوبةً؟ لمَ لا تحيا حياةً سعيدة؟ كل شيء أخذ يبدو لها الآن ممكناً وسهلاً ومؤكداً. كان كلُّ شيء عذباً، حسناً، كان كل شيء فاتناً في الحياة. لكن بما أنها كانت تريد أن تستمرّ في حلمها، فقد صبّت مرةً أخرى من ماء الحلم هذا على القطن، وأخذت تتنفّس، مُنحيّةً أحياناً السمَّ عن منخرها، لكي لا تتنفس منه أكثر مما ينبغي، لكي لا تموت.

نظرت إلى القمر ورأت صورةً في داخله، صورة امرأة. عادت إلى الهذيان في نشوة المخدّر المتخيلة. كانت هذه الصورة تتهادى وسط السماء؛ ثم إنها كانت تغنّي؛ كانت تغنّي بصوتٍ معروف، «هللّويا» الحب.

كانت هذه هي المركيزة التي عادت لتعزف على البيانو.

صار لإيفيت أجنحةٌ الآن. كانت تطير ليلاً، في ليلة جميلة مضيئة، فوق الغابات والأنهار. كانت تطير بلذّة، ناشرةً جناحيها، مرفرفة بجناحين يحملها الهواء كما تحملنا المداعباتُ. كانت تتقلّب في الهواء الذي يقبّل

جلدها، وكانت تمر بسرعة شديدة، شديدة إلى الحدّ الذي لم تتمكن معه من رؤية أي شيء تحتها، وألفتْ نفسها جالسةً على ضفاف مستنقع وبيدها خيط الصنّارة! كانت تصيد السمك.

شدّ شيءٌ على الخيط الذي سحبته من الماء وهو يحمل عقداً بديعاً من اللآلئ التي اشتهتها في وقت سابق. لم تدهش البتّة من هذه اللقيا، وكانت تنظر إلى «سيرفينيي» الذي جاء إلى قربها دون أن تعلم كيف، وهو يصيد أيضاً ويُخرج من النهر حصاناً خشبياً.

ثم انتابها إحساسٌ بأنها استيقظت وسمعت مناداتها من تحت.

قالت أمها:

- هلا أطفأتِ الشمعة.

ثم ارتفع صوت «سيرفينيي» واضحاً وهازلاً:

- هلا أطفأتِ شمعتكِ، آنسة «ايفيت».

وأردفوا جميعاً بصوت واحد:

- آنسة ايفيت، هلا أطفأتِ شمعتك؟.

صبت أيضاً شيئاً من الكلوروفورم على القطن، لكن بما أنها لم تشأ أن تموت، فقد أبقتْها بعيدة عن وجهها، لكي تتنفّس الهواء النقيّ، وهي تنشر في غرفتها رائحة المخدّر الخانقة، لأنها أدركت أنهم سيصعدون؛ وانتظرت وقد اتخذت وضعَ المتهالكة، وضع الميتة.

كانت المركيزة تقول. أنا قلقةٌ قليلاً! لقد نامت هذه المجنونة الصغيرة تاركة الضوءَ على طاولتها. شأرسل «كليمانس» لتطفئه، ولتُغلق نافذة شرفتها التي ظلت مفتوحةً على مصراعيها.

وما لبثت الخادمةُ الفرّاشةُ أن صدمت الباب وهي تنادي

- آنسة، آنسة!

وبعد صمتٍ استأنفت:

- ياآنسة، السيدة المركيزة ترجوك أن تطفئي شمعتكِ وأن تغلقي نافذتك.

انتظرت «كليمانس» قليلاً ثم قرعت الباب بقوة أكبر وهي تصرخ:

- آنسة، آنسة!

ولمّا لم تجب «ايفيت» نزلت الخادمةُ وقالت للمركيزة.

الآنسة نائمةٌ، من غير شك؛ المزلاج مغلقٌ ولا أستطيع إيقاظها.

تمتمت السيدة اوباردي:

- لن تظل مع ذلك هكذا؟

حينئذٍ تجمّعوا كلهم تحت نافذة الفتاة، بناءً على نصيحة «سيرفينيي» وصاحوا بصوتٍ واحد: -هيب! -هيب! هورا! -آنسة ايفيت!

تصاعدت ضوضاؤهم في الليل الهادئ، وطارت تحت القمر في الهواء الشفّاف، ومضتْ إلى البلدة النائمة؛ وسمعوها تنأى، مثلُها مثل ضوضاء القطار العابر. قالت المركيزة لمّا لم تجب «ايفيت»:

- بشرط ألا يكون قد حدث لها شيء. بدأتُ أخاف.

حينئذٍ قطف «سيرفينيي» الورود الحمراء من شجرة الورد الضخمة الطالعة بحذاءِ الجدار والبراعم التي لم تتفتّح بعد وأخذ يرميها في الغرفة من خلال النافذة.

انتفضت «ايفيت» عند أول وردة تلقّتها، وأوشكت أن تصرخ. وسقطت ورودٌ أخرى على فستانها، وأخرى على شعرها، وبعضُها مرّ من فوق رأسها واستقرّ على السرير فغطّاه بوابلٍ من الورود.

صاحت المركيزةُ مرةً أخرى بصوت مخنوق :

- ما لكِ «ايفيت» ردّي علينا .

حيئذٍ أعلن «سيرفينيي» ليس هذا، في الحقيقة، طبيعياً، وسأتسلق من الشرفة .

لكن الفارس اغتاظ :

- عفوك، عفوك، هذه خطوة كبيرة، وأنا أعترض؛ إنها وسيلة جدّ صالحة، ولحظة جدّ صالحة لنيل موعد!

صاح الجميعُ الذين اعتقدوا أن الأمر مهزلةٌ من جانب الفتاة :

- نحن نحتجّ. هذه عملية مدبّرة . لن يصعد . لن يصعد .

لكن المركيزة كرّرت وهي متأثّرة .

- لا بد من الذهاب إليها، مع ذلك .

أعلن الأميرُ بلهجة مسرحية :

- إنها تُؤثر الدوق، تلك خيانةٌ لنا .

طلب الفارسُ :

- لنِراهنْ على الوجه والقفا، لنعلم مَنْ سيصعد .

وأخرج من جيبه قطعة ذهبية بمئة فرنك . بدأ الأمير . قال : القفا فجاء الوجهُ ثم طرح الأميرُ بدوره السؤال نفسه على الجميع . فخسروا كلهم . أعلن بوقاحةٍ سيرفينيي الذي ظل وحده إزاءه :

- في الحقيقة، إنه يغشّ .

وضع الروسي يده على قلبه ومدّ القطعة الذهبية لخصمه وهو يقول :

العبْ أنت نفسك، يا دوقي العزيز:

أخذها «سيرفينيي» ورماها وهو يصيح:

- الوجه.

فكان القفا.

حيّا، وأشار بيده إلى عمود الشرفة:

- اصعد، أيها الأمير.

لكن الأمير نظر حوله نظرةً قلقة. فسأله الفارس:

- عمّ تبحث

- لكني... أطلب... سلّماً.

انفجر الضحكُ العام. وتقدّم «سافال»:

- سوف نساعدكَ.

رفعه بين يديه الجبارتين كيدي هرقل وهو يوصيه:

- تعلّقْ بالشرفة.

ما لبث الأمير أن تعلّق بها. وأرخاه «سافال» فظل معلّقاً، يحرّك قدميه في الفراغ، حينئذ أمسك «سيرفينيي» بهاتين القدمين المخبولتين اللتين كانتا تبحثان عن مُستَنَد، وشدّ فوقهما بكل قوّته، فسقط الأميرُ مثل كتلة على صدر السيد «دي بيلفينيي» الذي تقدّم ليتلقّاه.

سأل «سيرفينيي»:

دورُ مَنْ؟

لكن لم يتقدم أحدٌ

- هيّا «بيلفينيي»، شيئاً من الجرأة.

- شكراً، يا عزيزي، فأنا حريصٌ على عظامي.

- هيّا، أيها الفارس، لا بدّ أنك قد تعوّدت التسلّق.

- أتنازل لكَ عن مكاني، يا دوقي العزيز.

- هو! . . . هو . . . لم أعد قادراً على الاحتمال أكثر من ذلك.

وأخذ «سيرفينيي» يدور حول العمود بعين يقظة. ثم وثب وثبةً فتعلق بالشرفة وصعدها بقبضته، وصحّح وضعه كما يصنع الرياضي وعبر الدرابزين.

صفّق الجميع وعيونُهم عليه. لكنه ما لبث أن خرج وهو يصرخ:

- أسرعوا! أسرعوا! «ايفيت» فاقدةٌ وعيها!

أطلقت المركيزةُ صرخةً عظيمة واندفعت إلى الدرج. كانت الفتاة مغمضة العينين، تتظاهر بالموت.

دخلت أمُّها مخبولةً وارتمت عليها:

- قلْ لي، ماذا أصابها؟ ماذا أصابها؟

التقط «سيرفينيي» زجاجة الكلوروفورم الواقعة أرضاً، وقال:

- لقد خنقت نفسها.

ألصق أذنيه بقلبها، ثم أضاف:

- لكنها لم تمت. وسنُعشها. أعندكِ شيءٌ من النشادر هنا؟

ردّدت الخادمةُ وهي شاردة اللبّ:

- شيءٌ مّ . . . مّ . . . يا سيدي؟

- من الماء المسكّن.

-نعم، يا سيّدي.

احمليه لي على الفور ودعي الباب مفتوحاً ليمرّ تيّارُ الهواء.

جثتْ المركيزةُ على ركبتيها وأخذت تنتحب:

- ايفيت! ايفيت! يا بنتي، يا بنتي الصغيرة، يا بنتي، اسمعي، أجيبيني، ايفيت، يا ولدي. أوه يا الهي! يا الهي! ماذا أصابها؟

كان الرجالُ الذين ألمّ بهم الرعبُ يتحركون دون أن يفعلوا شيئاً، فيحملون الماء والمناشف والكؤوس والخلّ.

قال أحدهُم: «يجب أن ننزع عنها ثيابها!» حاولت المركيزة التي فقدت رشدها أن تنزع ثياب ابنتها؛ لكنها لم تكن تعلم ماذا تفعل. كانت يداها ترتجفان، وتضطربان، وتخطئان السبيل، وهي تتأوه:

- لا أستطع... لا أستطيع...

عادت الخادمةُ وهي تحمل زجاجة الصيدلي التي فتحها «سيرفينيي» وصبّ نصفها على منديل، ثم ألصقه بأنف «ايفيت» التي أصابها أختناق. وقال:

-حسنٌ، إنها تتنفس. لا أهمية لذلك.

غسل صدغيها ووجنتيها، عنقها بالسائل الخشن الرائحة. ثم أومأ إلى الخادمة أن تفكّ ثيابها، ولمّا لم يبق على قميصها سوى تنّورة، رفعها بين يديه، وحملها إلى سريرها وهو يرتعش، وقد هزتّه رائحةُ هذا الجسد الذي يكاد يكون عارياً، هزّه احتكاكه بهذا الجسد، برطوبة النهدين المختبئين اللذين حناهما تحت فمه.

عندما أُضجعتْ، نهض وهو شديد الشحوب، وقال: «سوف تصحو، ولا أهمية لذلك». لأنه سمعها تتنفس تنفّساً متّصلاً ومنتظماً. لكنه إذ شاهد جميع الرجال شاخصين بأبصارهم إلى «ايفيت» الممدّدة على سريرها، أرعشه سخطٌ غيورٌ، فتقدم نحوهم، وقال:

ياسادتي، نحن زائدون عن اللزوم كثيراً في هذه الغرفة؛ تفضّلوا ودعونا وحدنا، السيد سافال وأنا مع المركيزة.

تكلم بلهجة جافّة مفعمة بالقوة.

انصرف الآخرون، في الحال.

أمسكت السيدةُ «اوباردي» عشيقها بملء ذراعيها، ورفعت إليه رأسها وهي تصرخ:

– أنقذْها. . . اوه! أنقذها! . . .

التفت «سيرفينيي» فرأى رسالة على الطاولة. تناولها بحركة سريعة وقرأ العنوان، ففهم وفكّر: «ربما كان من الواجب ألا نُعلم المركيزة بها». ومزّقت المغلّف، فمرّ بنظره على السطرين اللذين تحتويهما الرسالة:

«إني أموت لكي لا أكون امرأةً يُنفقُ عليها خليلُها. «ايفيت». «وداعاً يا ماما العزيزة، وعفواً.»

فكرّ: إن هذا يتطلّب التفكير. وأخفى الرسالة في جيبه.

ثم دنا من السرير، وخطر بباله على الفور أن الفتاة قد عادت إلى وعيها، ولكنها لا تجرؤ على اظهار ذلك، من الخجل والمذلّة والخوف من الأسئلة.

ركعت المركيزة الآن وبكت، ورأسها عند قائمة السرير. وقالت فجأة: «الطبيب، لا بدّ من الطبيب.»

لكن سيرفينيي الذي كلّم سافال قبل لحظة بصوت خافت قائلاً: «لا، انتهى الأمر. هيّا، اخرجوا دقيقة، دقيقة واحدة فقط، وأنا أعدك بأنها ستقبّلك عندما تعود». فأنهض البارون السيدة «اوباردي» من ذراعيها، وقادها.

حينئذٍ جلس سيرفينيي قرب الفراش، وتناول يد «ايفيت» وقال:

- اصغي إليّ، يا آنسة...

لم تجب. كانت تحسّ أنها تنام نوماً مريحاً جداً، عذباً جداً، دافئاً جداً، إلى حدّ تودُّ معه ألا تتحرك أبداً، ألا تتكلم أبداً، وأن تعيش أبداً هكذا. اجتاحتها هناءةٌ لا نهاية لها، هناءةٌ لم تشعر بمثلها قط.

دخل هواءُ الليل الفاتر بهبّاتٍ خفيفة، هبّات مخملية تمرّ بين الحين على وجهها مراً لذيذاً غير محسوس. كانَ ذلك كالمداعبة، كقبلة الريح. مثل نفحةٍ بطيئة ومنعشة من مروحةٍ مصنوعة بجميع أوراق الغابات وبجميع ظلال الليل، وضباب الأنهار، وبجميع الأزهار أيضاً، لأن الورود التي أُلقيتْ من تحت إلى غرفتها وعلى سريرها، والورود المتسلّقة على الشرفة كانت تمزج أريجها الذاوي بنكهة النسيم الليلي المنعش.

كانت تعبّ هذا الهواء العليل، والعينان مغمضتان، والقلب مرتاحٌ إلى نشوة المخدّر التي ما تزال مستمرة، وزال عنها شوقُها إلى الموت، واستبدّ بها شوقٌ عارم طاغٍ، إلى أن تحيا، أن تكون سعيدة، كيفما يكن ذلك، أن تكون محبوبةٍ، نعم، محبوبةً.

كرّر سيرفينيي:

- آنسة «ايفيت»، اصغي إليّ.

قرّرت أن تفتح عينيها. استأنف كلامه حين رآها منتعشةً:

- هيّا، هيّا. ما هذه الحماقات الجنونية؟

تمتمت:

- يا موسكادي المسكين، كانَ بي حزنٌ كبير.

شدّ على يدها شداً أبوياً.

- أهذا الذي حداك إلى هذا الفعلة الكبيرة. آه نعم! عديني ألا تعودي إلى ذلك.

لم تجب، لكنها حركت رأسها حركة خفيفة أكّدتها بسمتُها التي تُحَسّ ولا تُرى.

أخرج من جيبه الرسالةَ التي وجدها على الطاولة:

- هل ينبغي أن ترى الرسالةَ أمُك؟

أومأت أن «لا» بجبهتها.

لم يعد يعلم ما يقول. إذ بدا له الوضعُ بلا مخرج. تمتم:

- يا عزيزتي، على الانسان أن ينال نصيبه من المشقّات. وأنا أفهم جيداً ألمك، وأعدكِ...

همست متلعثمة:

- أنت طيّب...

صمتا. كان ينظر إليها. كان في عينها شيءٌ من التحنّن، من الخور، وفجأة، رفعت ذرعيها كأنها تريد أن تجْذبه. انحنى عليها إذ أحسّ أنها تدعوه. واتّحدتْ شفتاهما.

ظلا هكذا زمناً طويلاً مغمضي الأعين. لكنه أدرك أنه سيفقد صوابه فنهض. كانت تبتسم له الآن ابتسامة الحنان الحقيقية؛ وبيديها المعلقتين بكتفيه استبقته. قال:

- سآتي بأمك.

همست:

لحظة أخرى. فأنا في حالة حسنة.

ثم قالت بصوت خافت، بعد صمت، جدّ خافت بحيث لم يكد يسمعه:

- أعبدُكَ.

لكن هناك مَنْ يمشي قرب الباب. فوثب ناهضاً وصاح بصوته العادي الذي كان يبدو دائماً أنه هازل:

- يمكنكِ أن تدخلي. قُضي الأمرُ الآن.

اندفعت المركيزة إلى ابنتها، وذراعاها مفتوحتان، وضمّتها بجنون، غامرةً وجهها بالدموع، بينما تقدّم «سيرفينيي» إلى الشرفة وهو مشرق النفس، منفعل الجسد، ليتنفّس هواء الليل البليل وهو يترنم:

«غالباً ما تتغيّر المرأة

ومجنونٌ مَنْ يثق بها.»

انتهى

ـ العودة ـ

البحرُ يلطم الشاطئ بموجته القصيرة والرتيبة. والسحبُ الصغيرة البيضاء تمرّ مسرعةً عبر السماء العريضة الزرقاء، تحملها ريحٌ عجلى، كالطيور؛ والقرية في طيّة الوادي الصغير الذي ينحدر إلى البحر، تتدفأ في الشمس.

وفي مدخلها تماماً، منزلُ «مارتان ليفيك» وحده على حافة الطريق. إنه مسكنُ صيّادٍ صغيرٍ، جدرانُه من الطين، وسقفه من القصب المزدان بالسوسن الأزرق. وأمام الباب قامت حديقةٌ عرضُها كعرض المنديل، ينبتُ فيها شيءٌ من البصل والملفوف والبقدونس العادي والبقدونس الفرنجي، ويسيّجها سياج على طول الطريق.

الرجلُ في صيد السمك، والمرأةُ، أمام الخصّ، تُصلح سرداتِ شبكة كبيرة سمراء ممدودة على الجدار كأنها نسيجٌ عنكبوتيٌّ هائل. وعند مدخل الحديقة، بُنيّةٌ في الرابعة عشرة تجلس على كرسي من القش، منحنية إلى الخلف، ومسندة ظهرها إلى الحاجز، ترفأ بياضاً، بياضَ فقيرٍ، مرقوعاً، مرتوقاً. وصبيّةٌ أخرى، أصغر منها، تهدهد بين ذراعيها طفلاً صغيراً جداً ما يزال عاجزاً عن الحركة أو الكلام؛ وصبيّان في الثانية أو الثالثة، قعدا على الأرض، وجهاً لوجه، يلعبان لعبة البستنة بأيديهما الخُرق ويتراميان بالتراب في وجهيهما.

لا أحد يتكلم. الطفل وحده الذي يجري تنويمُه يبكي بكاءً متّصلاً بصوت حاد وخافت. على النافذة ينام هرٌّ؛ وقد شكّل المنثورُ المتفتحّ عند أسفل الجدار شريطاً تطنّ عليه طائفةٌ من الذباب.

نادت فجأةً البنيّةُ التي تخيط قرب المدخل:

- ماما!

أجابت الأمُّ:

- ما بكِ؟

- ها هو ذا من جديد.

إنهما قلقتان منذ الصباح، لأن ثمة رجلاً يحوم حول المنزل: رجلاً كبير السن يبدو فقيراً. شاهدتاه بينما كانتا تصطحبان الأب إلى مركبه لإبحاره. كان جالساً فوق الحفرة مقابل الباب. ثم إنهما عندما عادتا من الشاطئ وجدتاه هنا ينظر إلى البيت.

كان يبدو مريضاً وبائساً جداً. لم يتحرك منذ أكثر من ساعة؛ ثم لمّا رأى أنهما تعتبرانه شريراً، نهض وانصرف وهو يجرّ ساقه.

لكنهما ما لبثتا أن رأتاه يعود بخطوته البطيئة والمُتعبة؛ كما جلس أبعد قليلاً هذه المرة وكأنه يرصدهما.

خافت الأمُ والبُنيّات. الأمُ بخاصة ارتبكت لأنها كانت متخوّفة بطبعها، وأن زوجها «ليفيك» لن يعود من البحر إلا عند حلول الظلام. كان زوجها يدعى «ليفيك» أما هي فكانت تدعى «مارتان» فسماها الناسُ آل «مارتان ليفيك». ودونكَ السبب:

لقد تزوّجت زواجها الأول من بحارٍ اسمه «مارتان» كان يذهب في كل صيف إلى «الأرض الجديدة» لصيد سمك المورة.

وبعد سنتين من الزواج رُزقتْ منه بطفلة صغيرة وكانت حاملاً منذ ستة أشهر عندما اختفى المركب «الأختان» الذي كان يُقلّ زوجها، وهو مركب من «دييب» بثلاث صواري.

لم يُخبَر عنه أيُّ خبر؛ لم يعد أحدٌ من البحّارة الذين كانوا على ظهره؛ واعتُبر مفقوداً بكل ما عليه ومن عليه.

انتظرت المرأةُ «مارتان» رجلها عشر سنوات، وربّت بمشقة عظيمة ولديها؛ ثم إنها لمّا كانت امرأةً شجاعةً ومتقدّمة في السن، طلبها إلى الزواج صيادٌ من القرية، أرمل وله صبيّ. فتزوجته وأنجبت منه ولدين في مدى ثلاث سنوات.

كانوا يعيشون بعَناءٍ وجدّ. كان الخبزُ غالياً، أما اللحمُ فكاد يكون مجهولاً في المنزل. وكانوا يستدينون أحياناً من الخبّاز، في الشتاء، في زمن العواصف. بيد أن صحة الصغار كانت حسنة. وكان الناسُ يقولون:

– آل «مارتان ليفيك» أناسٌ طيّبون. والمرأة «مارتان» جَلْدةٌ على التعب، ولا مثيل لـ «ليفيك» في صيد السمك.

أردفت البنيّة الجالسة عند الحاجز

– كأنما يعرفنا. فلعله أحد فقراء «ايبر يفيل» أو «اوزبوك».

لكن المرأة لم تخطئه. لا، لا، لم يكن أحد أبناء المنطقة، بكل تأكيد! ولما كان جامداً لا يتحرك أدنى حركة، وأنه كان يحدّق بأصرّار إلى منزل «مارتان ليفيلك» ثارت ثائرةُ المرأة «مارتان» وجعلها الخوفُ باسلة، فتناولت رفشاً وخرجت إلى قدّام الباب، وصاحت بالشريد:

– ماذا تفعل هنا؟

أجاب بصوتٍ مبحوح:

– إني أتنشق الهواء! وهل آذيتكِ؟

أردفت:

– ولماذا تتجسس تقريباً على بيتي؟

ردّ الرجلُ:

– إني لا أُسيء إلى أحد. أليس مسموحاً الجلوسُ على الطريق؟

ولمّا لم تجد شيئاً تجيب به عادت إلى بيتها. مرّ النهار ببطء. وعند الظهر اختفى الرجل. لكنه رجع في نحو الخامسة. ولم يُر في المساء.

عاد «ليفيك» عند حلول الظلام. وأُخبر بالحادثة فأبدى رأيه:

– هذا متطفّل أو خبيث.

ونام بلا قلقٍ، بينما كانت رفيقتُه تفكّر في هذا الحائم الذي نظر إليها بعينين غريبتين.

عندما طلع النهار، كانت الريحُ شديدةً، ورأى البحّار أنه لا يستطع أن يركب البحر، فساعد امرأته على اصلاح شباكه.

في حوالي الساعة التاسعة عادت البنيّةُ التي من «مارتان» وهي تركض وقد بدا عليها الخوف، وكانت تبحث عن الخبز، وصاحت:

ماما، هاهو ذا مرة أخرى!

انفعلت الأمُّ وقالت لزوجها وهي شاحبةٌ:

– اذهبْ وكلّمه، ليفريك، لكي لا يراقبنا هكذا. لأن هذا يخضّ حواسّي كلها.

خرج «ليفيك» بهدوء، وهو بحّار طويل ذو سحنة قرميدية، ولحية خشنة حمراء، وعين زرقاء تخترقها نقطةٌ سوداء، وعنق قوي، ملفّع أبداً بالصوف خوفاً من المطر والريح في عرض البحر، واقترب من الحائم. أخذا يتحدثان.

أخذت الأمُّ والأولاد ينظرون إليهما من بعيد قلقين ومرتعشين. وفجأة نهض الغريب واتّجه مع «ليفيك» إلى المنزل.

ارتعبت الأم وتراجعت. فقال لها زوجُها:

– أعطيه قليلا من الخبز وكأساً من خمر التفاح. لم يأكل شيئاً منذ أول

من أمس. ودخلا المنزل كلاهما تتبعهما المرأة والأولاد. جلس الخائم وطفق يأكل، خافضاً رأسه الذي اتّجهت جميعُ الأنظار إليه.

تفرّسته الأمُّ، وهي واقفة. وأخذت البنتان الكبيرتان، اللتان من مارتان، المستندتان إلى الباب، وإحداهما تحمل الطفل الأخير، تحدّقان إليه بعيون نهمة، وكفّ الصبيان الجالسان على رماد المدفأة عن اللعب بالقِدر الأسود، وكأنهما يريدان أن يتأملا هذا الغريب.

سأله «ليفيك» وقد تناول كرسياً:

- وإذن فأنت آتٍ من بعيد؟

- جئتُ من «سيت».

- على قدميك، هكذا؟

- نعم، على قدمي. لا بدّ من ذلك، إذا لم نملك الوسائل.

- وأين تذهب إذن؟

- أنا آتٍ إلى هنا.

- أتعرف أحداً.

- ممكنٌ جداً. ؟

صمتا. كان يأكل على مهله مع أنه كان جائعاً. وكان يشرب جرعةً من خمر التفاح بعد كل لقمة. كان وجهه منهوكاً، مغضّناً، مجوفاً في كل أنحائه، وبدا عليه أنه تألم كثيراً.

سأله «ليفيك» فجأةً:

- وما اسمك؟

أجاب دون أن يرفع وجهه:

- اسمي مارتان.

هزّت الأمَّ رعشةٌ غريبةٌ. تقدّمت خطوةً كأنها تريد أن ترى ذلك الشريد عن كثب، وظلّت قبالته متدلّية الذراعين، فاغرة فاها. لم يقل أحدٌ شيئاً. استأنف «ليفيك» الكلامَ أخيراً.

- أأنت من هنا؟

أجاب:

-أنا من هنا.

وبينما كان يرفع رأسه التقت عيناه وعينا المرأة، وظلت العيون ثابتةً، متمازجةً، وكأن النظرات قد تعلّقت بعضُها ببعض. ونطقت فجأةً، بصوت متغيّر، خافتٍ، راجفٍ:

- أنت زوجي؟

فتلفَّظَ ببطء:

- نعم، أنا هو!

لم يتحرك واستمرّ يمضغ خبزه.

تمتم ليفيك وقد دُهش أكثر ممّا انفعل:

- أأنت مارتان؟

قال الآخر بكل بساطة:

- نعم، أنا هو!

وسأله الزوجُ الثاني:

- ومن أين جئت إذن؟

روى الأول:

- من ساحل افريقيا. غرقنا على رصيف رملي. ونجا منا ثلاثة بيكار، فاتيفال، وأنا. ثم أخذنا متوحشون واحتجزونا اثنتي عشرة سنة. مات بيكار وفاتيفال. وخلصني مسافرٌ انكليزي أثناء مروره وجاء بي إلى «سيت» وها أناذا.

أخذت المرأةُ تبكي، ووجهها في وزرتها.

قال «ليفيك»:

- وماذا سنفعل في هذه الساعة؟

سأله مارتان:

أأنت زوجُها؟

أجاب ليفيك:

- نعم، أنا هو!

نظر كلاهما إلى الآخر وصمتا. حينئذٍ، تأمّل مارتان الأولاد المتحلّقين حوله، وأشار إلى البنيّتين بحركة من رأسه:

- هاتان بنتاي؟

قال ليفيك:

- هما بنتاك.

لم ينهض، ولم يعانقهما. واكتفى بالملاحظة:

- يا الهي، كم كبرتا!

كرّر «ليفيك»:

- وماذا سنفعل؟

كان مارتان حائراً لا يعرف ماذا سيفعل. وأخيراً صمّم:

-أنا سأفعل ما ترغب فيه. لا أريد أن أضرّ. ومع ذلك فالأمر يضايق، بسبب البيت. لي ولدان ولك ثلاثة. لكلٍ أولاده. الأمُّ لي ولك؟ أنا موافق على كل ما يُرضيك: أما البيتُ فهو لي باعتبار أن أبي تركه لي، وفيه وُلدت، وأنّ فيه أوراقاً لدى كاتب العدل.

كانت المرأة تبكي أبداً، بزفرات صغيرة في قماش الوزرة الزرقاء. واقتربت البنيتان الكبيرتان إحداهما من الأخرى وأخذتا تنظران إلى أبيهما بقلق.

انتهى من الأكل. وقال بدوره:

- ماذا سنفعل؟

خطرت لـ «ليفيك» فكرةٌ:

- يجب أن نذهب إلى الكاهن، وسوف أقرّر. نهض مارتان، وبينما يتقدّم نحو امرأته ارتمت على صدره وهي تنتحب.

- يا زوجي! ها أنت ذا! مارتان، يامارتان المسكين، ها أنت ذا!

أمسكته بملء ذراعيها، ونفذتْ إليها فجأة نفحةٌ من الماضي، هزّةٌ من الذكريات ذكّرتاها بسنيها العشرين، وبضمّاتها الأولى.

تأثر مارتان نفسه فقبّلها على طاقيّتها. أخذ الولدان في المدفأة، يصرخان معاً، وهما يسمعان أمهما تبكي. وصاح الوليدُ بين ذراعي ابنة مارتان الثانية بصوت حاد مثل صوت مزمار نشاز.

كان ليفيك واقفاً ينتظر. قال:

- هيّا، يجب أن نسوّي القضية حسب الأصول.

أرخى «مارتان» امرأته، وبينما كان ينظر إلى بنتيه قالت الأمُ لهما:

- قبّلا أباكما، على الأقل.

اقتربتا في الوقت نفسه، جافّتي العيون، مدهوشتين، متخوّفتين قليلا. قبّلهما الواحدة بعد الأخرى، كلا على وجنتيها، قبلةً فلاحية كبيرة. وعندما رأى الصغيرُ هذا المجهول يقترب أطلق صرخات ثاقبة إلى الحد الذي كاد يُصاب معها بالتشنّج.

ثم خرج الرجلان معاً. وبينما هما يمرّان أمام مقهى «التجارة» سأل «ليفيك»:

– هلا تناولنا قطرةً؟

أعلن مارتان:

– أنا موافق.

دخلا المقهى، وجلسا في الصالة التي ما تزال خالية.

– هية! شيكو! هات كأسين من الخمر الفاخرة. هذا مارتان قد عاد، مارتان رجل امرأتي، كما تعلم، مارتان البحار الذي فُقِد في مركب «الأختان».

حمل صاحب الحانة ثلاثة أقداح بيد والدورق باليد الأخرى، ودنا منهما وهو رجل بطين، دموي، ممتلئ شحماً، وسأل بهدوء:

– عجباً! ها أنت ذا مارتان، إذن؟

أجاب مارتان:

– ها أنا ذا!...

اللقيط

- الحقيقةُ أني أحسبكِ مجنونة، ياصاحبتي العزيزة، بذهابك للتنزّه في الريف، في مثل هذا الوقت. إن لكِ، منذ شهرين أفكاراً غريبة. فأنتِ تأخذينني، شئتُ أم أبيتُ، إلى شاطئ البحر، بينما لم تخطر لك هذه الخواطر قط منذ أن تزوجنا قبل خمسة وأربعين عاماً. وأنتِ تختارين، من غير استشارة أحد، «فيكان» وهي مدينةٌ كئيبة، وها أنتِ يستحوذ عليك هوسُ التنقّل، أنت التي لم تكوني تتحركين، حتى إنك تودّين أن تتنزهي عبر الحقول في أشدّ أيام السنة حرارةً. قولي لـ«دابريفال» أن يصحبك بما أنه يتقبل جميع نزواتكِ. أما أنا فسوف أعود للقيلولة.

التفتت السيدة «دي كادور» إلى صديقها القديم:

- هل تأتي معي، دابريفال؟

انحنى، وهو يبتسم، بلطف الزمن الغابر، وقال:

- سأذهب حيثما تذهبين.

قال السيد «دي كادور»:

- اذهبا لتُصابا بضربة شمس.

ورجع إلى فندق «الحمّامات» ليتمدّد على سريره ساعة أو ساعتين.

ما إن صارت المرأة العجوز وصاحبها العجوز وحدهما حتى انطلقا في طريقهما. قالت بصوت خافت جداً، وهي تشدّ على يده: «أخيراً! - أخيراً!» همس: «أنتِ مجنونة. أؤكّد لكِ أنكِ مجنونة. فكّري فيما تخاطرين به. لو أن هذا الرجلَ. . . » انتفضت: «أَوه! هنري، لا تقل: «هذا الرجل»، وأنتَ تتحدث عنه.

استأنف، بلهجة نزقة: «حسناً! لو أن ابننا خامره الشكُّ في شيء، لو ارتاب فينا، لاستمسك بك، لاستمسك بنا. لقد استغنيتِ عن رؤيته منذ أربعين عاماً، فما الذي دهاكِ اليوم؟

سارا في الشارع الطويل الذاهب من البحر إلى المدينة. انعطفا إلى اليمين ليصعدا سفح «ايتريتا». كانت الطريق البيضاء تنبسط تحت وابلٍ محرقٍ من الشمس.

كانا يمضيان ببطء تحت الحرارة الملتهبة، بخطا قصيرة. تأبطت ذراع صديقها، وأخذت تنظر أمامها مباشرة نظرة شاخصةً، موسوسةً.

قالت: «وهكذا فأنت لم تلقه أيضاً قط؟

- لا، أبداً.

- أممكنٌ هذا؟

- يا صديقتي العزيزة، يجب ألانعود إلى ذلك النقاش الأبدي. إن لي امرأةً وأولاداً ولكِ زوجكِ، فلنا إذن من الدواعي ما يحملنا على الخوف من الرأي العام.

لم تجب. وأخذت تفكر في شبابها البعيد، في الأشياء الماضية، الحزينة جداً.

لقد زُوِّجت كما تُزوَّج الفتيات. لم تكد تعرف خطيبها، الدبلوماسيّ وعاشت معه، عيشة جميع نساء الدنيا. لكن إذا بشاب، هو السيد «دابر فيل» يحبها بغرام عميق: وأثناء الغياب الطويل للسيد «دي كادور» الذي ذهب إلى الهند بمهمّة دبلوماسية، استسلمت له.

أكان بوسعها أن تقاوم؟ أن تمتنع؟ أكانت تملك القوة والشجاعة في ألا تستلم، لأنها كانت تحبّه أيضاً؟

كلا، في الحقيقة، كلا! ذلك مفرط القسوة! كانت ستتألم فوق طاقتها! ما أشدّ خبث الحياة وأكثر احتيالها! أيمكن تحاشي بعض ضربات القدر، أيمكن الهربُ من المصير المحتوم؟ عندما يتعلّق ذلك بامرأة، وحيدة، مهجورة، محرومة من الحنان، والأولاد، أيمكن الهرب دائماً من الهوى الذي يهبّ عليك، كما نهرب من ضياء الشمس، لنحيا، حتى الموت، في ظلام؟

كم تذكّرتْ الآن جميع التفاصيل، قبلاته، بسماته، وقوفه عند الباب لينظر إليها وهو يدخل عليها. يا لها من أيام سعيدة، أيامها الجميلة وحدها، وقد انقضت بسرعة!

ثم تبيّنت أنها حبلى! ويا للقلق!

أوه! ذلك السفر إلى الجنوب، ذلك السفر الطويل، وأوجاعها وأهوال الخوف المتصلة؛ وتلك الحياة المحتجبة في ذلك «الشاليه» المنعزل على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في أعماق حديقة لم تكن تجرؤ على الخروج منها! كم كانت تتذكّر تلك الأيام الطويلة التي قضتها متمدّدةً تحت شجرة برتقال، وعيناها ناظرتان إلى الثمار الحمراء المدوّرة بين الأوراق الخضراء! كم تمنّت أن تخرج، أن تمضي إلى البحر الذي كانت نسمته الندية تأتيها من فوق الجدار، والذي كانت تسمع موجاته القصيرة على الشاطئ، فتحلم بسطحه الأزرق الرحب، الملتمع بالشمس، مع أشرعةٍ بيضاء وجبل في الأفق. ولكنها لم تكن تجسر على تجاوز الباب، ماذا تفعل لو عرفها الناس وقد تغيّر شكلُها هكذا، مبديةً عارها في زنّارها الثقيل.

وأيام الانتظار، الأيام المعذّبة الأخيرة! والإنذارات! والأوجاع المهدِّدة! ثم تلك الليلة المرعبة! فكم من البلايا كابدت!

أية ليلة، كانت تلك الليلة! كم تأوهت وصرخت! ما تزال ترى وجه عشيقها الشاحب، وهو يقبّل يدها في كل دقيقة، ووجه الطبيب الأمرد، وقلنسوة الممرّضة البيضاء.

وأية هزّة شعرت بها في قلبها وهي تسمع ذلك التأوّه الواهي للوليد، ذلك المواء، أول مجهود لصوت إنسان!

واليوم التالي! اليوم التالي! اليوم الوحيد في حياتها الذي رأت فيه ابنها وقبّلته، لأنها لم تشاهده مجرّد مشاهدة قط بعد ذلك اليوم.

ومنذ ذلك الحين، أية حياة طويلة، فارغة، كانت تطفو فيها دائماً، دائماً فكرةُ هذا الولد! لم تره ثانيةً، ولو مرةً واحدة، ذلك الكائن الصغير الذي خرج منها، ابنها! لقد أخذوه وحملوه وأخفوه. وكل ما علمته أنه تربّى عند أسرة نورماندية، وأنه أصبح هو نفسه فلاحاً، وأنه متزوّج زواجاً موفقاً بمهرٍ حسن من عند أبيه الذي لا يعرف اسمه.

كم من مرة ودّت، منذ أربعين عاماً، لو تذهب لتراه، لتعانقه. لم تكن تتصورّ أنه كبرَ. كانت تفكرّ دائماً في تلك اليرقانة البشرية التي أمسكتها ذات يوم بين ذراعيها وضمّتها إلى جانب صدرها المرضوض.

كم من مرة قالت لعشيقها: «ما عدتُ أقوى على الاصطبار، أريد أن أراه، أريد أن أسافر.» وقد صدّها دائماً، وأوقفها!. ماكان بوسعها تمالك نفسها والسيطرة عليها؛ وكان الآخر سيكشف الأمر وسيستغلها. كان ذلك كفيلاً بالقضاء عليها.

كانت تقول:

– وكيف هو؟

– لا أدري. لم أره ثانيةً أنا أيضاً.

– أممكنٌ هذا؟ أيكون لنا ولدٌ ولا نعرفه. نخافه ونرفضه كأنه العار– ذلك فظيع.

كانا يسيران على الطريق الطويلة، يرهقهما لهيبُ الشمس، ويصعدان أبداً ذلك السفح الذي لا ينتهي.

استأنفت :

- كانما كان ذلك عقاباً لي؟ فأنا لم أُرزَقْ ولداً غيره. لا، لا يمكنني أن أقاوم الرغبة في رؤيته، وهي رغبةٌ تلازمني منذ أربعين عاماً. أنتم الرجال، لا تفهمون ذلك. تصوّرْ أنني أقترب من الموت. وأنني لم أره ثانية! . . . لم أره ثانية، أممكن هذا؟ كيف أمكنني أن أنتظر كلَّ هذا الزمن الطويل؟ لقد فكرتُ فيه طوال حياتي. وأيّ وجود فظيع جرّه ذلك عليّ. لم أستيقظ مرة واحدة، ولا مرة واحدة، أتفهم، دون أن تكون فكرتي الأولى له، لولدي كيف هو؟ أوه! كم أشعر أني مذنبة تجاهه! هل ينبغي أن نخشى الناس في هذه الحالة؟ كان عليّ أن أهجر كلَّ شيء وأن أتبعه، وأربيه، وأحبه. إذن لكنتُ أسعد، بكل تأكيد. لم أتجرأ. كنتُ جبانة. كم تألمتُ! أوه! كم ستكره هذه الكائناتُ اللقيطةُ أمهاتها!

توقفتْ فجأةً وقد خنقتها الزفرات. كان الوادي كله مقفراً وصامتاً تحت ضياء النهار المُرهف. الجرادات وحدها كانت ترسل صراخها الجاف والمتّصل في العشب الأصفر والنادر على جانبي الطريق. قال:

اجلسي قليلاً.

تبعته إلى حافة الطريق، وتهالكت ووجهُها بين يديها. انبسط شعرها الأبيض المبروم حلزونياً على جانبي وجهها، وأخذت تبكي وقد مزّقها ألمٌ عميق.

ظلّ واقفاً إزاءها، قلقاً، لا يعلم ماذا يقول لها. وتمتم: «هيا. . تشجّعي. . . »

نهضت وقالت: «سأتشجع.» - ومسحت عينيها واستأنفت سيرها بخطا عجوزٍ، خطاً متقطعة. كانت الطريق، على بعد قليل، تدلف إلى أيكة تخفي أشجارها بعض البيوت. أخذا يميّزان الآن الصدم المذبذب والمنتظم لمطرقة الحدادة على السندان.

وما لبثا أن رأيا، إلى اليمين، طنبراً أُوقف أمام منزل منخفض، ورجلين تحت سقيفة، يُبيطران حصاناً.

اقترب السيد «دابريفال» وصاح:

- مزرعة «بيير بينيديكت»؟

أجاب أحدُ الرجلين:

- خذ الطريق على اليسار، مقابل المقهى الصغير، ثم اذهب مباشرة، إنها الثالثة بعد مزرعة «بورية». هناك شجرة تنّوب قرب الحاجز. لا مجال للغلط.

انعطفا إلى اليسار. كانت تسير بهدوء الآن، خائرة الساقين، خافقة القلب بكثير من العنف حتى كادت تختنق.

كانت تتمتم عند كل خطوة، وكأنها تصلي: -«يا الهي! أوه! ياالهي!» وضغط الانفعال حنجرتها، فترنّحت على قدميها وكأنما قد عرُقبتْ.

قال لها السيد «دابر يفال» فجأة وهو عصبيٌّ، شاحبٌ قليلاً: «إذا كنت لا تحسنين مزيداً من تمالك الذات، فسوف تفضحين نفسك على الفور. حاولي أن تسيطري على نفسك. تمتمت: «أأنا قادرةٌ على ذلك؟ ولدي! عندما أفكرّ أنني سأرى ولدي!»

سلكا طريقاً من تلك الطرق الريفية المنخفضة، الوعرة بين أفنية المزارع، متواريةً بين صفيّن من شجر الزان المصفوف على الحفر.

وفجأةً، ألفيا نفسيهما أمام حاجز خشبي تظلّله صنوبرةٌ فتيّة. قال:

- ها هنا.

وقفتْ على الفور ونظرت.

كان الفناءُ المزروع بالتفّاح كبيراً، ممتداً حتى منزل السكن الصغير المغطّى

بالقصب. وفي مقابلة الاصطبل والزريبة وقنّ الدجاج. وتحت سقف من الآجر العريات: الطنبر وعربةٌ بعجلتين، وعربة بعجلة واحدة. وكانت أربعة عجول ترعى العشب الأخضر في ظل الأشجار. وكانت الدجاجات السوداء سارحة في جميع زوايا الأرض المسوّرة.

لا صوت. كان باب البيت مفتوحاً. لكن لم يكن يُرى أحدٌ.

دخلا. وسرعان ما خرج كلبٌ أسود من برميل متدحرج عند كعب إجّاصة عظيمة، ،أخذ ينبح بشدة. وعندما وصلا رأياً بإزاء جدار المنزل، اربع مناحل محطوطة على ألواح تُبرزُ صفّ قببها من القش

صاح السيد «دابر يفال»، أمام المنزل: «هل ها هنا أحد؟» ظهرت طفلةٌ، صغيرة، بنت عشر سنوات تقريباً، ترتدي قميصاً وتنورة صوفيّة، وساقاها عاريتان ووسختان، وقد بدا عليها الخجل والمكر. ظلّت واقفة في إطار الباب كأنها تريد أن تمنع الدخول. قالت:

– ماذا تريدان؟

– هل أبوكِ هنا؟

– لا.

– وأين هو؟

– لا أدري

– وأمك؟

– هي في عملها، تحلب البقرات.

– وهل ستعود قريباً؟

– لا أدري.

وفجأة قالت المرأة العجوز بصوت متسارع، وكأنها خشيتْ أن تَرجَع بالقوة.

- لن أنصرف قبل أن أراه.

سننتظره، ياصديقتي العزيزة. وبينما كانا يلتفتان شاهدا فلاحةً آتية إلى البيت، حاملةً سطلين من التنك بدا أنهما ثقيلان، وكانت الشمس تصبّ عليهما بين الحين والآخر شعلتها الباهرة والبيضاء.

كانت تعرج بساقها اليمنى، وكان صدرها ملفوفاً بقميص مسرود أسمر، باهت، غسله المطر، ومغّره الصيف. كانت هيئتها هيأة خادمة فقيرة، بائسة ووسخة. قالت الطفلة: «هاهي ذي أمي».

عندما اقتربت من منزلها، نظرت إلى الغريبين نظرة الحذر والريبة؛ ثم دخلت بيتها وكأنها لم ترهما.

بدت مسنةً، بوجهها الهزيل، الأصفر، القاسي: وجه الريفيات الخشبي.

ناداها السيد دابر بريفال:

- يا سيدتي، لقد جئنا لنطلب إليكِ أن تبيعينا كأسي حليب.

همهمت، وهي تظهر ثانية على الباب، بعد أن حطّت السطلين:

- أنا لا أبيع الحليب.

- ذلك لأننا عطشانان جداً. السيدة عجوزٌ وهي متعبة. أليس من سبيل لشرب شيءٍ ما؟

تفرّستهما الفلاحةُ بعين قلقة وماكرة.

وأخيراً صمّمت وقالت:

- بما أنكما هنا فسوف أعطيكما مع ذلك شيئاً تشربانه.

وتوارت داخل المنزل.

ثم خرجت البنتُ وهي تحمل كرسيين وضعتهما تحت تفاحة؛ وجاءت الأمُ بدورها ومعها قصعتان من الحليب المُرغي وضعتهما بين أيدي الزائرين.

ثم ظلت واقفة أمامها لتراقبها وتتنبأ بمقاصدهما.

قالت:

- أنتما من «فيكان»؟

أجاب السيد «دابر يفال»:

- نعم، نحن في «فيكان» لقضاء الصيف.

ثم استأنف بعد صمت:

- أيمكنك أن تبيعينا فراريج كلّ اسبوع؟

تردّدت الفلاحة، ثم أجابت:

- لكن، على كل حال، أتريدانها فتيّة؟

- نعم، فتيّةً.

- كم تدفعان، في السوق؟

كان «دابر يفال» يجهل ذلك، فالتفت إلى صديقته:

- كم تدفعين ثمن الدواجن، ياعزيزتي، الدواجن الفتية.

تمتمت وعيناها مغروقتان بالدمع:

- أربعة فرنكات، أربعة فرنكات ونصف.

نظرت إليها الفلاحةُ بمؤخر عينها، وهي مدهوشةٌ، ثم سألت:

- أهي مريضةٌ، هذه السيدة، بما أنها تبكي؟

لم يَدْرِ بم يجيب، وغمغم:

- لا . . . لا . . لكنها . . . فقدت ساعتها في الطريق، ساعة ثمينة، فشقّ ذلك عليها. وإذا وجدها أحدٌ فأعلمينا.

لم تجب الأمُ «بينيد بكت» إذ رأت ذلك موضعاً للشك. وفجأة قالت:

- ها هوذا زوجي!

هي وحدها رأته يدخل لأنها كانت تواجه الحاجز.

انتفض السيد «دابر يفال»، وأوشكت السيدة «دي كادور» أن تقع وهي تستدير بوله على كرسيّها.

كان ثمّة رجلٌ، على عشر خطوات، يسحب بحبلٍ بقرةً، وقد انحنى حتى صار اثنين، وهو يلهث.

قال دون انتباه للزائرين:

- ملعونة! ما أبلدها!

ومرّ ذاهباً إلى الحظيرة حيث توارى.

جفّت عبرات المرأة العجوز على حين غِرّة، ولبثت مرتعبةً، بلا كلام ولا فكر: -ابنها، كان هذا هو ابنها!

قال السيد «دابر يفال» الذي جرحته الفكرةُ نفسها، بصوت مضطرب:

- أهذا هو السيد بينيد يكت»؟

سألت الفلاحة وهي مرتابة:

- من أخبركما باسمه؟

أردف:

- الحداد في زواية الشارع الكبير.

ثم صمتوا جميعاً، إذ كانت عيونهم شاخصةً إلى باب الحظيرة الذي

كوّن ما يشبه الثقب الأسود في جدار المبنى. لم يكن يُرى شيءٌ في الداخل، لكن كانت تُسمع أصواتٌ مبهمة، وحركاتٌ، وخطواتٌ مُخمدة بسبب القش المنثور على الأرض.

ظهر من جديد على العتبة وهو يجفّف جبينه، وعاد إلى البيت بخطا واسعة وبطيئة كانت ترفعه عند كل فشخة.

ومرّ أيضاً أمام هذين الغريبين وكأنه لم يلحظهما وقال لامرأته:

- ائتني بدورقٍ من خمر التفاح فأنا عطشان.

ثم دخل مسكنه. ودخلت الفلاحةُ بيت المؤَن تاركةً الباريسيين وحدهما.

تمتمت السيدة «دي كادور» الولهى:

- لِننصرفْ، هنري، هيّا لننصرفْ.

أمسك دابريفال بيدها، وأنهضها، وسندها بكل قوّته، لأنه شعر بأنها ستقع، واقتادها بعد أن رمى بخمسة فرنكات على إحدى الكراسي.

ما إن قطعا الحاجز حتى أخذت تنتحب والألم يهزّها وهي تغمغم:

- أوه! أوه! انظرْ إلى ما فعلتَه به؟

كان شديد الشحوب. أجاب بلهجة جافة.

- فعلتُ ما بوسعي أن أفعله. فمزرعتُه تساوي ثمانين ألف فرنك. وذلك مهرٌ لا يحصل عليه جميعُ أبناء البرجوازيين.

وعادا بهدوء، دون أن يضيفا كلمة. كانت تبكي أبداً. وكانت الدموع تنهمر من عينيها وتسيل على وجنتيها دون انقطاع.

توقّفا أخيراً وعادا إلى «فيكان».

وكان السيد دي كادور ينتظرهما للغداء. وعندما شاهدهما أخذ يضحك وصاح:

- ممتاز، أصيبت امرأتي بضربة شمس. أنا سعيد. إنني أظن، في الحقيقة، أنها فقدت رشدها، منذ بعض الوقت!

لم يجب الرجلُ ولا المرأة. وعندما سألهما الزوجُ وهو يفرك يديه:

- هل قمتما بنزهة جميلة، على الأقل.

أجاب «دابريفال»:

- رألئعة، يا عزيزي، رائعة تماماً-

أفكار العقيد

قال العقيد «لابورت»:

الواقع أنني عجوزٌ، وأنني مصابٌ بالنقرس، وساقاي متصلبتان مثل أوتاد حاجزٍ، ومع ذلك لو أن امرأة، امرأة جميلة، أمرتني بأن أمرّ من ثقب إبرة، لظننتُ أني سأقفز فيه كما يفعل المهرّج في الطوق. وسأموت كذلك، فذلك في الدم. أنا متظرّف عجوز، عجوز من المدرسة القديمة. إن مرأى امرأة، امرأة جميلة، يحرّكني حتى في جزمتي

زدْ على ذلك أننا جميعاً، في فرنسا، متشابهون قليلاً، يا سادتي. نحن نظل، مع ذلك، فرساناً، فرسان الحبّ والمصادفة، لأننا ألغينا الله الذي كنا حقاً حراسه الشخصيّين.

لكن المرأة لن يقتلعها أحدٌ من قلوبنا. نحن نحبها، وسوف نحبها، ونحن نفعل من أجلها جميع صنوف الجنون، مادامت فرنسا على خريطة أوروبا. وحتى لو خُطفت فرنسا فسوف يظلّ هناك فرنسيون.

أنا، أمام عينيْ امرأة، امرأة جميلة، أُحسّ بنفسي قادراً على كل شيء. ياللعنة! عندما أشعر بنظرتها تنفذ إليّ، نظرتها الخارقة التي تشعل النار في عروقك، أشتهي شيئاً لا أدري كنهه، أن أقاتل، أن أصارع، أن أحطّم الأثاث، أن أُظهر أنني الأقوى، والأبسل، والأجرأ، والأخلص بين الرجال.

لكنني لستُ وحدي، حقيقةً لا. الجيشُ الفرنسي كله مثلي أقسم لك على ذلك. بدءاً من الجندي حتى الألوية، كلنا نمضي قُدماً، وحتى النهاية، عندما يتعلّق الأمرُ بامرأة، امرأة جميلة. تذكّروا ما جعلتْنا جان دارك نفعله في غابر الأيام. اسمعوا، أراهنكم أنْ لو تسلّمت امرأةٌ، امرأة جميلة، قيادة الجيش، عشيّة «سيدان» عندما جُرح المارشال «ماك ماهون»، لعبرنا الخطوط البروسيّة، ولشربنا خمرتنا في مدافعهم.

ليس ما يلزم باريس رجلاً مثل «تروشو» بل ما يلزمها مثلُ القديسة «جينيفييف».

أذكر بالضبط حكاية صغيرةً من الحرب تبرهن جيداً أننا قادرون على كل شيء، أمام امرأة.

كنتُ حينئذ نقيباً مجرد نقيب، وكنت آمراً لفوج من الاستطلاع يتراجع وسط بلد اجتاحه البروسيون. كنا محاصرين مطاردين، منهوكين، متبلّدين، نموت من الإرهاق والجوع.

كان علينا، قبل اليوم التالي، أن نبلغ «بارسورتران»، وإلا أُحرقْنا وقُطعنْا وذُبِّحنا. كيف أفلتْنا حتى الآن؟ لستُ أدري. كان علينا أن نزحف أثناء الليل اثني عشر ميلاً على الثلج وتحت الثلج، وبطوننا خاوية. فكرتُ:

انتهى الأمر، فلن يصل إليها رجالي المساكين.»

لم نأكل شيئاً منذ البارحة. وظللنا طوال النهار مختبئين في مخزن للحبوب، يلزّ بعضنُا بعضاً لنخفف من البرد، عاجزين عن الكلام والحركة، ننام نوماً متقطعاً، غير منتظم، كما ينام المُضنى من التعب.

في الساعة الخامسة، كان الوقت ليلاً، ذلك الليل الثلجي الشاحب. كنتُ أُحرك رجالي. كثيرون منهم كانوا يأبون أن ينهضوا، لعجزهم عن الحركة والوقوف، وقد تصلّبوا من البرد وغيره.

أمامنا كان السهلُ، السهل القاسي العاري حيث ينهمر الثلج انهماراً. الثلج يتساقط، يتساقط، كالستار، تلك الندف البيضاء التي تُخفي كل شيء تحت معطف ثقيل متجمد، سميك وميت، لحاف من صوف الثلج. كأن ذلك نهاية العالم.

- هيّا، سيروا، يا أولاد!

كانوا ينظرون إلى ذلك، إلى ذلك الغبار الأبيض النازل من فوق، وكانوا يبدون كمن يفكّرون:

- كفانا ما لقينا؛ الموتُ هنا كالموت هناك!

حينئذ أخرجتُ مسدّسي :

- من يتراجع فسوف أصرعه .

هاهم أولاء يسيرون، ببطءٍ شديد، كمن تهرأت أرجلهم .

أرسلتُ أربعة منهم للاستطلاع على ثلاثمئة متر أمامنا؛ ثم تبعهم الباقون، بغير نظام، ولا تمييز، تبعاً للتعب ولطول الخطا . وضعتُ الجنود الأمتن بنيةً في الخلف مع الأمر بتسريع المتخلفين، بلكزات الحراب في ظهورهم . . .

بدا الثلج كأنما يدفننا ونحن أحياء، كان يتذرذر على العمرات والمعاطف دون أن يذوب عليها، فيجعل منا أشباحاً، ضرباً من خيالات الجنود الموتى، المنهوكين .

كنتُ أقول في نفسي : «لن نخرج أبداً من هنا إلا بمعجزة» . كنا نقف أحياناً بضع دقائق بسبب الذين لا يستطيعون المتابعة . وحينئذ لم نكن نسمع سوى هذا الأنزلاق المبهم للثلج، تلك الجلبة التي لا تكاد تُدرك والتي يصنعها حفيفُ ندف الثلج المتساقطة واختلاطها .

كان بعض الرجال ينفضون الثلج عن أنفسهم . وآخرون لم يكونوا يتحركون .

ثم أصدرتُ أمري بمتابعة المسيرة . فارتفعت البنادقُ على الأكتاف، واستأنف الجنودُ مشيهم وقد أضناهم التعب .

وفجأةً انثنى رجالُ الاستطلاع راجعين . أقلقهم شيءٌ ما . سمعوا كلاماً أمامهم . فأرسلتُ ستة رجال وعريفاً . وانتظرتُ . اخترقَ صمتَ الثلوج الثقيل، صوتٌ حادٌ، صوتُ امرأة أو لا، وجيءَ بأسيرين، شيخ وفتاة .

سألتهما بصوت خافت . كانا يهربان من وجه البروسيين الذين احتلوا بيتهما في المساء، والذين كانوا سكارى . خاف الأبُ على ابنته فهربا معاً دون أن يُعلما خدمهما .

عرفتُ على الفور أنهما برجوازيان بل أكثر من بورجوازيين. قلتُ لهما:

–سترافقاننا.

أقلعنا من جديد. وبما أن الشيخ كان يعرف المنطقة فقد كان دليلنا.

كفّ الثلجُ عن السقوط؛ وظهرت النجوم، وغدا البرد فظيعاً.

كانت الفتاةُ الممسكة بذراع أبيها، تسير بخطوات متقطّعة، خطوات الضيق. وتمتمت عدة مرات: «لم أعد أحسّ بقدميّ»، وأنا كنت أتألم أكثر منها إذ أرى هذه الفتاة المسكينة تجرّ نفسها هكذا في الثلج.

وفجأة وقفت. وقالت:

– أبي، أنا متعبة إلى حدّ لا أستطيع معه أن أذهب أبعد من ذلك.

أراد الشيخ أن يحملها؛ لكنه لم يستطع حتى إنهاضها، وتهالكتْ على الأرض وهي تتأوه تأوّهاً طويلاً.

فجأةً قال أحدُ جنودي، وهو باريسيّ لُقّب: «العملي»:

هيّا، أيها الرفاق، يجب أن نحمل هذه الآنسة، وإلا فلسنا بفرنسيين.

ظننتُ، في الواقع، أنني سأجدّف من السرور.

– لطيفٌ هذا يا أولاد، وأود أن أسهم بنصيبي.

كانت تُرى بغموضٍ، في العتمة، على اليسار، أشجارُ غابةٍ صغيرة. انطلق بعضُ الرجال ومالبثوا أن جاؤوا بحزمة من الأغصان المربوطة على شكل محفّة. صاح «العمليّ»:

– مَنْ يُعير معطفه؟ ذلك من أجل هذه الفتاة الجميلة، يا أخوة.

أُلقيتْ عشرة معاطف حول الجندي. وفي مدى ثانية أُضجعت الفتاة

في هذه المعاطف الدافئة وحُملت على ستّ أكتاف. كنتُ على رأسهم، في الجهة اليمنى، وكنت مسروراً، في الواقع، أن يكون لي نصيبي من العبء.

استأنفنا السفر وكأننا شربنا كأساً من النبيذ، ونحن أعظم جسارةً وحيويةً. حتى لقد سمعتُ مزحاً. تكفي امرأة، كما تعلم، لكهربة الفرنسيين.

أعاد الجندُ إصلاح صفوفهم وقد انتعشوا ودفئوا. أحد القنّاصين القدماء الذي كان يتبع المحمل، وهو ينتظر دوره ليحلّ محل أول رفيق يتخاذل، همس لرفيقه بصوت عالٍ حتى أسمعه:

- لستُ شاباً" ما ألأمَ الجنس، ومع ذلك فليس مثله شيءٌ يثبّت قلبك في صدرك!

حتى الثالثة صباحاً، تقدّمنا تقريباً بلا استراحة. ثم تراجع المستطلعون فجأة، وما لبث الفوج كله أن استلقى على الثلج، ولم يعد سوى ظلّ مبهم على الأرض.

أعطيت أوامري بصوت منخفضٍ، وسمعت خلفي طقطقةً جافةً ومعدنية للبطاريات التي كانت تُعبّأ.

لأن شيئاً غريباً كان يتحرك هناك، وسط السهل. وكأنه وحشٌ هائل يركض ويتطاول مثل أفعى أو يتكوّم كالكرة، ويستوي للوثب ويتوقف ثم ينطلق.

وفجأةً اقترب ذلك الشكل الهائم على وجهه، ورأيت اثني عشر فارساً بروسياً مرتزقاً مبتلّين يَجرُون وقد ضلّوا سبيلهم، فهم يبحثون عن الطريق.

اقتربوا الآن منا إلى الحدّ الذي سمعت معه تماكماً نَفَسَ الخيل الأجش، وصوت حدائد السلاح، وقرقعة السروج. صحتُ:

-نار!

مزّقتْ صمتَ الليل خمسون طلقة بندقية. وانطلق أيضاً أربع فرقعات أو خمس. ثم انطلقت أخيرةٌ وحدها؛ وعندما تبدّد دخانُ البارود المستعل المُعمي تبيّن أن الأثني عشر رجلاً وتسعة جياد قد سقطوا. وهربت ثلاثة جياد وهي تجري هائجةً وكان أحدها يجرّ خلفه جثة فارسه وقد علقت رجله بالركاب وهو يثب بشدّة.

ضحك جندي ورائي ضحكاً رهيباً. وقال آخر:

ياللأرامل!

لعله كان متزوجاً. وأضاف ثالثٌ:

- لا يلزم وقتٌ كبير!

خرج من المحفة رأسٌ، قال:

- ماذا يجري، هل هو قتالٌ.

أجبتُ:

- ليس هذا شيئاً مهماً، يا آنسة. لقد قضينا على اثني عشر بروسياً!

تمتمت:

- مساكين!

لكن بما أنها بردت عادت فتوارت تحت المعاطف.

انطلقنا من جديد. مشينا طويلاً. ثم شحبت السماء. وغدا الثلج، وضّاحاً، مضيئاً، لمّاعاً؛ وامتدّت في المشرق مسحةٌ وردية.

صاح صوتٌ بعيد:

- مَنْ الآتي؟

توقّف الفوجُ؛ وتقدمت للتعارف.

وصلنا إلى الخطوط الفرنسية. وبينما كان رجالي يمرّون أمام المركز سأل مقدّمٌ يمتطي جواداً أنبأته بالخبر، بصوتٍ رنّان، وهو يرى المحفّة تمرّ:

- ماذا تحملون في داخلها؟

وسرعان ما برز وجهٌ أشقر، صغير، مشعّث الشعر، باسم الثغر، وأجاب:

- أنا، يا سيدي.

علا الضحكُ بين الجنود، وعلا الفرح في قلوبهم.

حينئذٍ لوّح «العمليُّ» الذي كان يسير بجنب النقّالة، بقبّعته العسكرية وهو يصرخ: عاشت فرنسا!

ولا أدري لماذا أحسستُ بالتأثر الشديد، لفرط ما وجدت ذلك لطيفاً وظريفاً. بدا لي كأننا أنقذنا البلاد، كأننا فعلنا شيئاً لا يفعله رجالٌ غيرنا، شيئاً بسيطاً ووطنياً حقاً.

ذلك الوجه الصغير لن أنساه أبداً؛ وإذا كان عليّ أن أبدي رأيي حول إلغاء الطبول والأبواق، فأنا أقترح أن نستبدل بها في كل فوج فتاةً جميلة. بل إن ذلك أفضل من عزف «المارسييز». ويا للعجب، كم يبثّ الحيوية في الجندي أن يكون معه عذراء مثل هذه، عذراء حيّة، بجنب العقيد.

صمتَ بضع ثوان، ثم أردف بهيئة القانع، وهو يهزّ رأسه:

- سيان، نحن الفرنسيين، نحبّ النساءَ كثيراً.

ـ نزهة ـ

عندما خرج من المخزن العمُّ «ليراس» ماسك الدفاتر عند «لابوز» وشركائه، ظلّ بضع لحظات مبهوراً ببريق الشمس الغاربة. لقد عمل طوال النهار في النور الأصفر لمصباح الغاز، في صدر مؤخّرة الحانوت، فوق الفناء الضيق والعميق كالبئر. كانت الغرفةُ الصغيرة التي قضى أيامه كلها فيها منذ أربعين عاماً، مظلمة جداً بحيث لا يكاد يستغني عن إضاءتها من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الثالثة، حتى في أوج الصيف.

كان الجوّ فيها رطباً وبارداً دائماً وكان فَوْحُ هذا الضرب من الحفرة التي تنفتح عليها النافذة، يدخل الغرفةَ المظلمة ويملؤها برائحة متعفّنة لها نتانة المجارير.

كان السيد «ليراس»، منذ أربعين عاماً، يصل كل صباح، في الساعة الثامنة، إلى هذا السجن؛ ويبقى فيه حتى الساعة السابعة مساءً، مكبّاً على دفاتره، كاتباً باجتهاد المستخدم الصالح.

كان يربح الآن ثلاثة آلاف فرنك في السنة، إذ كان قد بدأ بألف وخمسمئة فرنك. ظل عزباً إذ أن موارده لم تسمح له بالزواج. وبما أنه لم يستمتع قط بشيء فإنه لم يكن يرغب في شيء ذي بال. ومن وقت إلى آخر، وحين يملّ من شغله الرتيب والمتواصل، كان يُعرب عن هذه الأمنية الأفلاطونية: «ويجي، لوكان لي دخلٌ من خمسة آلاف فرنك لعشتُ عيشةً هنيئةً.»

بيد أنه لم يعش قط عيشةً هنيئة إذ لم يكن له سوى مرتّباته الشهرية. لقد انقضت حياته بلا حوادث، ولا انفعالات، ولا آمال تقريباً. إن ملكة الأحلام التي يحملها كل واحدٍ في ذاته، لم تَنَمُ وسط تفاهة مطامحه.

دخل لدى «لابوز» وشركائه، في سنّ الواحدة والعشرين، ولم يخرج من عنده.

فقد أباه في سنة ١٩٥٦ ، ثم فقد أمه في سنة ١٨٥٩ . ومنذ ذلك الحين لم يحدث شيء سوى الانتقال من مسكنه لأن صاحبه أراد أن يزيد الأجرة .

في جميع الأيام، كان المنبّه صباحاً، وفي الساعة السادسة بالضبط، يدفعه إلى الوثوب من سريره بضجيج رهيب لسلسة تُبْسط .

بيد أن هذه الآلية تعطّلت مرتين، في ١٩٦٦ وفي ١٨٧٤ ، دون أن يعلم أبداً لماذا . كان يرتدي ثيابه، ويرتّب سريره، ويكنس غرفته، وينفّض مقعده ووجه صوانه . وكانت هذه الأعباء تتطلب منه ساعة ونصف .

ثم كان يخرج، ويشتري هلاليّة من مخبز «لاهور»، الذي عرف أحد عشر صاحباً له دون أن يفقد اسمه، ويستأنف سيره وهو يأكل هذا الرغيف الصغير .

كان وجوده كله يتمّ إذن في ذلك المكتب الضيّق المعتم المفروش بالورق نفسه . دخله شاباً كمساعد للسيد «برومان» وبه رغبةٌ في أن يحلّ محله .

ولقد حلّ محله ولم يعد ينتظر شيئاً .

إن حصاد الذكريات التي يجمّعها الناس في مجرى حياتهم، والأحداث غير المتوقّعة، وصنوف الحب العذبة أو المأساوية، والرحلات المغامرة، كل مصادفات الوجود الحر ظلت غريبة عنه .

تشابهت الأيامُ والأسابيع والأشهر والفصول . كان ينهض كلَّ يوم، في الساعة نفسها، وينصرف، ويصل إلى المكتب، ويتناول غداءه، ويذهب للعشاء وينام دون أن يقطع شيءٌ الرتابة المنتظمة للأفعال نفسها، والأحداث نفسها، والأفكار نفسها .

كان، فيما مضى، ينظر إلى شاربه الأشقر وشعره الجعد في المرآة الصغيرة المدورة التي تركها سلفهُ . فأخذ يتأمل الآن، كلّ مساء، قبل أن ينصرف، شاربه الأبيض وجبهته الصلعاء في المرآة نفسها . انقضى أربعون

عاماً، طويلة وسريعة، فارغة كيوم من الحزن، ومتشابهة مثل ساعات ليلة ثقيلة! أربعون عاماً لم يبق منها شيء حتى ولا الذكرى، حتى ولا مصيبة منذ موت أبويه. لا شيء.

في هذا اليوم، ظل السيد «ليراس» مبهوراً ببريق الشمس الغاربة؛ وبدلاً من أن يعود إلى منزله، خطر له أن يجول جولةً صغيرة قبل العشاء، وهذا مما يقع له أربع مرات أو خمساً كلَّ عام.

بلغ الجادَّات التي كان يتدفّق فيها سيلٌ من الناس تحت الأشجار التي عادت إليها خضرتُها. كان مساءً ربيعياً، من تلك الأمسية الأولى الدافئة والرطبة التي تثير في القلوب نشوة الحياة.

كان السيد «ليراس» يسير بخطوته، خطوة عجوز منطنطة؛ كان يمضي، وفي عينيه مرحٌ، سعيداً بالفرح الشامل وبفتور الهواء.

بلغَ «الشانز يليزيه» وتابع سيره، تنعشه دفقاتُ الشاب التي تمرّ في النسيم.

كانت السماء بأسرها تلتهب؛ وكان قوس النصر يُبرز بوضوح كتلته السوداء على خلفية الأفق البارقة، مثل عملاق جبّار واقف في الحريق. وعندما وصل إلى جانب ذلك الصرح الهائل، أحسّ ماسكُ الدفاتر العجوز أنه جائع فدخل دكّان خمور ليتعشّى.

قُدِّم له الطعامُ أمام الدكان، على الرصيف، من لحم الخروف، والسلطة، والهليون؛ تعشّى السيد «ليراس» أفضل عشاء منذ زمن طويل، وشرب مع جبن «بري» نصفَ زجاجةٍ من نبيذ / بوردو» الفاخر؛ ثم شرب فنجان قهوةٍ، وذلك قلّما يقع له، وتناول بعد ذلك كأساً من الشمبانيا الفاخرة.

عندما دفع الحساب أحسّ بنفسه شديد القوة والمرح، مع شيء من

الاضطراب. وقال في نفسه: إن الأمسية لجميلةٌ. سأتابع نزهتي حتى مدخل غاب «بولونيي». فذلك يفيدني.»

ومضى. عاد إلى ذهنه بعنادٍ لحنٌ كانت تردّده إحدى جاراته: «عندما تخضرّ الغابةُ، يقول لي عشيقي، تعالي تنسّمي الهواء، تحت العرزال.» كان يترنم به بلا انقطاع، ويبدؤه من جديد أبداً. هبط الليلُ على باريس، ليلٌ بلا ريح، ليلُ محمّ. كان السيد «ليراس» يسلك جادة غابة «بولونيي» وينظر إلى العربات وهي تمرّ. كانت تصل بعيونها اللمّاعة الواحدة تلو الأخرى، مظهرةً للحظةٍ زوجين متشابكين، المرأة بفستان فاتح والرجل مرتدياً السواد.

كان موكباً طويلاً من العاشقين يتنزهون تحت السماء المنجمة والحارقة. كانوا يفدون أبداً، يمّرون، مستلقين في العربات، خرساً، متُضامّين، تائهين في الهلوسة، في انفعال الشهوة، في رعشة الضمّة الآتية. كان الظلُّ الساخنُ يبدو مفُعماً بالقبلات التي ترفرف وتطفو. كان إحساسٌ من الرقة يُضفي فتوره على الهواء، ويجعله خانقاً. جميع هؤلاء المتضامّين، جميع هؤلاء الثملين بالانتظار نفسه، بالتفكير نفسه، يبعثون من حولهم الحمّى. جميع هذه العربات، الملأى بالمداعبات، تُلقي أثناء مرورها ما يشبه النفحات الناعمة التي تُشيع الاضطراب.

جلس السيدُ «ليراس» الذي تعب أخيراً، على مقعد يستعرضُ العربات المُثقلة بالحب. وما لبث أن دنتْ منه امرأة وجلست بجنبه، وقالت:

- يومك سعيد، يا صغيري.

لم يجب، فأردفت:

- هلا استسلمتَ للحب، يا عزيزي؛ سترى أنني لطيفة جداً.

فقال:

- أنت مخطئة، ياسيدتي.

مرّرت ذراعيها تحت ذراعيه :

- هيّا ، لا تتغابَ ، اسمعْ . . .

نهض وابتعد وهو منقبض الصدر .

على مئة خطوة أبعد من ذلك ، دنت منه امرأةٌ أخرى :

- أتريد أن تجلس لحظة بقربي ، يا فتاي الجميل ؟

قال لها :

- لماذا تمارسين هذه الحرفة ؟

انتصبت أمامه ، وتغيّر صوتُها فغدا أجشّ ، خبيثاً :

- ويلك ، لستُ أفعل ذلك دائماً من أجل لذّتي !

فألحّ بصوتٍ رقيق :

- مالذي يدفعك إذن ؟

همهمت :

- لا بدّ لنا من أن نعيش ، هذه المهزلة . . .

وانصرفت وهي تدندن .

ظل السيد ليراس مرتعباً . ومرت نساءٌ أُخَر بجنبه ، وناديْنه ، ودعونْه .

بدا له كأن شيئاً أسود يمرّ على رأسه ، شيئاً مؤلماً .

جلس من جديد على مقعد . كانت العربات تُجري أبداً . وفكّر :

- كان الأفضل لي لو لم آتِ إلى هنا . ها أنا ذا مضطرب أشد اضطراب ، منزعج أشد انزعاج .

أخذ يفكّر في كل ذلك الحبّ المُشترى أو المشبوب ، في كل تلك القبلات المدفوعة الثمن أو الحرّة ، التي تمرّ أمامه .

الحب؟ لم يكد يعرفه. لم تكن في حياته سوى امرأتين أو ثلاث، بالمصادفة، بالمفاجأة، ذلك أن موارده لم تكن تسمح له بأيّ تجاوز. وفكّر في هذه الحياة التي عاشها، المختلفة كل الاختلاف عن حياة الآخرين، في هذه الحياة الكالحة جداً، الكئيبة جداً، المسطّحة جداً، والفارغة جداً.

هناك كائنات ليس لها، في الحقيقة، حظ. وفجأة، وكأن غشاءً سميكاً تمزّق، أبصر شقاءَ وجوده، شقاءه الرتيب الذي لا نهاية له: الشقاء الماضي والشقاء الحاضر، والشقاء الآتي؛ الأيام الأخيرة شبيهة بالأولى، دون أي شيء أمامه، ودون أي شيء خلفه، ودون أي شيء حوله، ودون أي شيء في القلب، ودون أي شيء في أي مكان.

كان موكب العربات لا يني يمرّ. وكان يرى دائماً أثناء المرور السريع للعربة المكشوفة، الكائنين المتشابكين يظهران ويختفيان. بدا له أن البشرية بأسرها تمر أمامه ثملةً من الفرح، واللذة والسعادة. وكان وحده ينظر إليها، وحده، وحده تماماً. وسيظل حده غدا، وحده أبداً، وحده كما لم يكن إنسان كذلك.

نهض، وخطا بضع خطوات، وفجأة تعب، كأنه أتمّ سفراً طويلاً على قدميه، وعاد إلى الجلوس على المقعد الذي يليه.

ماذا كان ينتظر؟ ماذا كان يرجو؟ لاشيء. وفكّر في أن حياة المرء لا بد أن تكون هانئةً، وهو عجوزٌ، إذا عاد إلى منزله، ووجد أولاد صغاراً يثغثغون. الشيخوخة حلوةٌ عندما نكون محاطين بهذه الكائنات التي تدين لك بالحياة، التي تحبك، وتلاطفك، وتقول لك تلك الكلمات الساحرة والبلهاء التي تُدفئ القلب وتعزّي عن كل شيء.

وعندما فكّر بغرفته الخالية، غرفته الصغيرة النظيفة والحزينة التي لم يدخلها إنسانٌ قط، انقبضت نفسه بإحساس من الضيق. بدت له تلك الغرفةُ أجدر بالرثاء من مكتبة الصغير.

لم يكن أحدٌ يأتيها، ولا أحد يتكلم فيها. كانت ميتةً دون صدى لصوت بشري. وكأن الجدران تحتفظ بشيء من الناس الذين يعيشون فيها، بشيء من هيئتهم، من وجههم، من كلامهم. إن البيوت التي تقطنها الأسرُ السعيدة أبهج من مساكن البؤساء. كانت غرفته خاليةً من الذكريات، مثل حياته. وأخذت فكرةُ العودة إلى هذه الغرفة، وحده، والنوم في سريره، والقيام بكل تلك الحركات وكل تلك الأعمال المسائية، أخذت تُرعبه. وكأنما أراد أن يزيد في البعد عن ذلك المسكن المشؤوم وعن اللحظة التي سيرجع فيها، فنهض، ولقي فجأة أول ممّرٍ في الغابة فدلف إلى حرجةٍ ليجلس على العشب.

كان يسمع حوله، وفوقه، وفي كل مكان، جلبةً مبهمة، عريضة، متّصلةً، مؤلفة من أصواتٍ لا تحصى، مختلفة، جلبة بهيمة، قريبة، بعيدة، هي خَفْق الحياة الغامض والهائل: نَفَس باريس التي تتنفس كالكائن الجبّار..........

.......كانت الشمس المرتفعة تُصبّ سيلاً من الضياء على غابةٍ «بولونيي». أخذت بعضُ العربات تجري؛ ووصل الفرسان بمرح.

كان زوجان يسيران خطوةً خطوةً في الممرّ المقفر. وفجأة شاهدت المرأة التي رفعت عينيها، شيئاً أسمر في الأغصان؛ رفعت يدها وهي مدهوشة، قلقة:

– انظرْ... ما هذا؟

ثم أرسلت صرخةً، وارتمت بين ذراعي رفيقها. الذي اضطُرَّ أن يضعها أرضاً.

مالبثَ الحرسُ أن دُعوا، وأنزلوا رجلاً عجوزاً مشنوقاً بحِمالتيه.

وتبين أن الوفاة تعود إلى العشيةمساءً. وأثبتت الأوراقُ التي يحملها أنه ماسك دفاتر عند «لابوز» وشركائه وأن اسمه «ليراس».

عُزِي الموتُ إلى انتحار لم يُشتَبَه بأسبابه. وربما كانت نوبةً مفاجئةً من الجنون.

التركيّ النذل

سأل النقيبُ:

- سنتناول القهوة على السطح؟

أجبتُ:

- نعم، بكل تأكيد.

نهض.

كانت الصالةُ معتمة لا يضيئها سوى الفناء الداخلي، بحسب طراز البيوت المغربية. وأمامَ النوافذ العالية ذوات الأقواس، كانت المعرّشات نازلة من السطح الكبير حيث يقضي الناسُ أمسيات الصيف الحارة. لم يبق على المائدة سوى الثمار، ثمار أفريقيا الكبيرة، من العنب الضخم كالخوخ، والتين الطريّ البنفسجي اللب، والإجاص الأصفر، والموز المتطاول والمكتنز، وتمر «توغورت» في سلة من الحلفاء.

فتح لنا البابَ الخادمُ الأسمر، صعدتُ الدرج ذا الجدران اللازوردية التي كانت تتلقّى من الأعلى النور الهادئ للنهار المودِّع.

كان المنزل الذي اشتراه النقيب مسكناً عربياً قديماً واقعاً في مركز المدينةِ القديمة. وسط أزقّة متداخلة تعج بالسكان الغربيين من سواحل افريقيا.

من فوقنا كانت السطوح المسطّحة والمربعة تهبط مثل درجات العمالقة حتى السطوح المائلة للمدينة الأوروبية. وخلف هذه، كانت تُشاهد صواري السفن الراسية، ثم البحر، عرض البحر الأزرق والهادئ تحت السماء الهادئة والزرقاء.

استلقينا على حُصُرٍ، تسند رؤوسنا الوسائدُ وكنت أنظر إلى أولى النجوم تبزغ في الأفق المظلم، وأنا أشرب ببطء قهوة البلاد اللذيذة. كانت النجوم تُشاهَدُ قليلاً، بعيدة جداً، شاحبةً جداً، لم تكد تضيء بعد.

وأحياناً، كانت تداعبُ جلودَنا حرارةٌ خفيفةٌ، حرارةٌ مجنّحة. وكانت نفحاتٌ أشدّ حرارة، ثقيلةٌ تمرّ بها رائحةٌ مبهمة، رائحة افريقيا وكأنها أنفاسُ الصحراء القريبةُ، آتية من فوق ذرى الأطلس. قال النقيب وهو مضطجع على ظهره:

– يا لها من بلاد، ياعزيزي! وما أعذبَ الحياة فيها! وكم في الراحة فيها من أشياء خاصة، عذبة! وكم تصلح هذه الليالي للحلم.

كنت أنظر، أنا، إلى النجوم، وهي تولد، بفضول متراخ لكنه حيّ.

ينبغي لكَ أن تحدثني عن شيء من حياتك في الجنوب.

كان النقيب «ماريه» أحد أقدم الأفريقيين في الجيش، ضابطاً بالمصادفة، فارساً قديماً وصل بقوة سيفه.

بفضله، وبفضل علاقاته وصداقاته، استطعتُ أن أقوم برحلة رائعة في الصحراء؛ وقد جئته هذا المساء لأشكره قبل عودتي إلى فرنسا.

قال:

– أي نوع من الحكايات تريد؟ لقد وقعت لي مغامرات شتّى، أثناء الاثنتي عشرة سنة في رمال الصحراء، حتى إني لم أعد أذكر أيّاً منها.

وأردفتُ:

– حدثني عن النساء

لم يجب. وظل متمدداً، ذراعاه مطويّتان، ويداه تحت رأسه، وكنت أشمّ أحياناً رائحة سيجاره الذي كان دخانه يعلو مستقيماً في السماء، في هذه الليلة التي لا نسيم فيها.

وفجأةً أخذ يضحك.

– آه! نعم، سأحدثك عن حادثة غريبة ترجع إلى زمني الأول في الجزائر.

كان لنا آنذاك في جيش افريقيا نماذج غير عادية، لم يعد يُرى مثلُها ولا يُنشأ مثلها، نماذج جديرة بأن تسرّي عنكَ، أنت، وأن تدفعك إلى أن تقضي حياتك كلها في هذه البلاد.

كنت مُجرّد خيّال، فارساً صغيراً ابن عشرين عاماً، شديد الشقرة، جسوراً، مرناً، وقوياً، يا عزيزي، جندياً حقيقياً من جنود الجزائر. أُلحقتُ بالقيادة العسكرية لـ «بوغار». أنت تعرف «بوغار» التي تُدعى شرفة الجنوب، وقد رأيت من أعلى الحصن بداية هذه البلاد الناريّة، المرصوفة، المتعرجة، الحجرية والحمراء. إنها حقاً مدخل الصحراء، الحدود المحرقة والرائعة للمنطقة الرائعة، منطقة الصحاري الموحشة الصفراء.

كنا إذن في «بوغار» نحو أربعين فارساً، سرية من المرحين مع كوكبة من قنّاصي افريقيا، عندما علمنا أن قبيلة «ولد برغي» قتلت سائحاً انكليزياً جاء إلى هذه البلاد دون أن يُعلم كيف جاء، لأن الانكليز مسكونون بالشيطان.

كان لا بد من عقاب هذه الجريمة التي ارتُكبت ضد أوروبي؛ لكن القائد الأعلى كان يتردّد في إرسال رتلٍ لاعتقاده أن الانكليزي لا يستحقّ كل هذا العنَاء.

وبينما كان يتحدث عن هذه القضيّة مع النقيب والملازم، عَرضَ فجأةً رقيبٌ في الخيالة، كان ينتظر ساعة التقرير، أن يذهب ويقتصَّ من القبيلة لو أعطي ستة رجال فقط.

ونحن، كما تعلم، أكثر حرية في الجنوب، منّا في المواقع، كما أن بين الجندي والضابط ضرباً من الرفقة غير موجودة في مكان آخر.

أخذ النقيب يضحك:

- أنتَ، ياصاحبي الباسل؟

- نعم، سيدي النقيب، وإذ شئتَ جئتُكَ بالقبيلة كلها أسيرةً.

وافق النقيبُ، وكان صاحب نزوة، على اقتراحه:

- سافرْ غداً صباحاً مع ستة رجال تختارهم أنت، وإذا لم تَفِ بوعدك فخذارِ!

أخذ ضابطُ الصف يبتسم في شاربه.

- لا تخشَ شيئاً، سيدي القائد. سيكون سجنائي هنا نهار الأربعاء ظهراً، على الأكثر.

كان هذا الرقيب هو «النذل» كما كان يُدعى، وكان رجلاً مُدهشاً حقاً. كان تركياً، تركياً حقيقياً، التحق بخدمة فرنسا بعد حياة موآرة جداً، وغير واضحة تماماً، بلاشك. وكان قد سافر إلى أماكن كثيرة، إلى اليونان، وآسيا الصغرى، ومصر، وفلسطين، ولابد أنه اقترف كثيراً من الآثام في طريقه كان «باشي بوزوق» حقيقياً، جريئاً، عربيداً، شرساً ومرحاً مرحَ الشرقي، المرح الهادئ. كان ضخماً، ضخماً جداً. لكنه مرنٌ كالقرد. وكان يركب جواده بطريقة عجيبة. كان شارباه الكثيفان والطويلان إلى حدّ لا يُصدَّق يوقظان دائماً فيّ فكرة مشوّشةَ عن الهلال وعن السيف العريض المعقوف. كان يكره العرب كرهاً حانقاً ويعاملهم بقسوة ماكرة مخيفة، مبتكراً دائماً حيلاً جديدة، وضروباً من الغدر المحسوب والرهيب.

كان يملك، فضلاً عن ذلك قوةّ وجسارةً لا تُصدَّقان.

قال له القائد:

- اخترْ رجالك، أيها الجسور.

اختارني. كان هذا الباسلُ يثق بي، وظللتُ مخلصاً له جسداً وروحاً من أجل هذا الاختيار الذي سرّني بقدر ما سرّني وسام جوقةَ الشرف، فيما بعد.

سافرنا إذن في صباح اليوم التالي، منذ الفجر، السبعة جميعاً، ولا أحد غيرنا السبعة. كان رفاقي من قطاع الطرق، من القراصنة الذين مارسوا السلب والنهب والتشرد في جميع البلدان الممكنة ثم عمدوا إلى الخدمة في الفرقة الأجنبية. وكان جيشنا في افريقيا مليئاً بهؤلاء الفاسقين، وهم جنود ممتازون لكنهم لا يكادون يسألون عن الأخلاق.

أعطى النذل كُلاً منا اثنتي قطعة حبل، طول القطعة مترٌ تقريباً، وحمّلني، فضلاً عن ذلك، باعتباري أصغر الجميع وأخفّهم، حبلاً كاملاً طوله مئة متر. ولما سئل عمّا سيفعله بكل هذه الحبال، أجاب بهيئته الماكرة والساكنة:

- ذلك للصيد على الطريقة العربية.

وغمز بعينه، بخبث، وهي حركة تعلّمها من صيادٍ باريسي قديم في افريقيا.

كان يسير على رأس الجماعة، معتماً بعمامة حمراء كان يضعها في الميدان، وكان يبتسم، وهو مشرقٌ في شاربيه الضخمين.

كان جميلاً حقاً هذا التركي العريض، ببطنه القوي، وكتفيه الجبّارتين، وهيئته الهادئة. كان يعتلي حصاناً أبيض متوسّط القامة، لكنه قوي؛ وكان هذا الفارس يبدو أكبر عشر مرات بالنسبة إلى جواده. دلفْنا إلى وادٍ حجري صغير، عارٍ، أصغر تماماً، يصبّ في وادي «شليف»، وأخذنا نتحدث عن حملتنا. وكانت لهجات رفاقي من أصناف شتّى، إذا كان بينهم أسبانيٌّ، ويونيان، وامريكي، وثلاثة فرنسيّين. أما هو فكان يلثغ بالراء بشكل لا يُصدّق.

كانت الشمسُ، الشمس الرهيبة، شمس الجنوب التي لا تُعرف في الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط. تسقط على أكتافنا، وكنا نسير

الهويني، كما هي العادة هناك. سرنا النهار كله دون أن نلتقي شجرة ولا عربياً.

في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، أكلنا، قرب عين صغيرة تنساب بين الأحجار، خبزاً ولحم خروف مجففاً في جعبتنا، ثم استأنفنا سيرنا بعد عشرين دقيقة.

وفي نحو الساعة السادسة مساء، وبعد دورة ألزمنا إياها قائدنا، اكتشفنا خلف أكمة قبيلة مخيّمة. كانت الخيام السمراء، الواطئة تشكّل بقعاً داكنة على الأرض الصفراء، وتبدو كالفطور الضخمة الصحروايه الطالعة قرب هذه الرابية الحمراء المتكلّسة من الشمس.

كان هؤلاء هم المطلوبين وأبعد منهم، على حافة سهلٍ من الحلفاء الداكنة الخضرة، كانت الجياد المربوطة ترعى.

أمرنا بالعدو. وصلنا كالزوبعة إلى وسط المخيم. ذُهلت النسوة اللواتي تكسوهن أسمالٌ بيضاء تتدلى وتخفق من حولهن، فدخلن على عجل مخابئهن النسيجية. وهن يزحفن وينحنين ويصرخن كالحيوانات المطاردة. بينما خرج الرجالُ من جميع الجهات توخياً للدفاع.

مضينا مباشرة إلى أعلى خيمةٍ، خيمة الآغا.

احتفظنا بسيوفنا في أغمادها، مقتدين بقائدنا الذي كان يعدو على نحو غريب. كان يظلُ جامداً، وهو يستوي على ظهر حصانه الصغير الذي هاج تحته كالمجنون ليحمل هذه الكتلة. وكان هدوءُ الفارس ذي الشاربين الطويلين يتناقض مع حيويّة الحصان.

خرج الزعيمُ المحليَّ من خيمته بينما كنا نصل أمامها.

كان رجلاً طويلاً، هزيلاً، أسود، بعين لماعة، وجبين بارز، وحاجب كقوس الدائرة. صاح بالعربية:

- ماذا تريدون؟

أوقف «التركي النَذْلُ» حصانه مباشرة وأجابه بلغته:

- أأنت قتلتَ السائح الانكليزي؟

أجاب الآغا بصوت قوي:

- ليس عليّ أن أخضع لاستجوابك.

كان حولنا كالعاصفة المدويّة. إذ سارع العربُ من جميع الجهات، يضيّقون علينا، ويُطبقون، ويصرخون.

كانوا يبدون كالطيور الكاسرة بأنوفهم المقوّسة، ووجوهم الهزيلة البارزة العظام، وبثيابهم الفضفاضة التي تحركها حركاتهم.

ابتسم التركيُّ وقد أمال عمامته، واتّقدت عينه، ورأيتُ مثلَ رعشات اللذة على وجنتيه المتهدلتين قليلاً، المكتنزتين والمتغضنتين.

- الموتُ لمن قتَلَ!

وصوّب مسدّسه إلى وجه الآغا الأسمر. رأيتُ شيئاً من الدخان يخرج من القصبة؛ ثم انبجس من جبهة زعيم القبيلة زبدٌ ورديٌ من النخاع والدم. خرّ صريعاً، على ظهره، فاتحاً ذراعية اللتين رفعتا، كالجناحين، أطراف برنسه الفضفاضة.

لقد اعتقدتُ حقاً أن نهايتي حانت، لفرط ماكانت الضوضاء هائلة من حولنا.

استلّ التركيُّ سيفه، واستللنا سيوفنا مثله. صاح وهو يدفع عنه بكَرّة سريعةٍ مَنْ ضيّقوا عليه أكثر من غيرهم:

- النجاةُ لمن يخضعون، والموتُ لغيرهم!

وإذ أمسك بقبضته الجبّارة أقرب رجل إليه، بطحه على سرجه، وربط يديه، وهو يصيح بنا:

- افعلوا مثلي واطعنوا من يقاوم.

في خمس دقائق قبضنا على نحو عشرين من العرب، ربطنا معاصمهم بقوة. ثم طاردنا الهاربين؛ إذ تشتت الرجالُ من حولنا عند مرأى السيوف المجرّدة. ثم جلبنا أيضاً قرابة ثلاثين رجلا. في أرجاء السهل كلها، كانت تُشاهد أشياء بيضاء تركض. وكانت النساء يجررن أولادهن وهن يُطلقن صراخاً حاداً، والكلابُ الصفراء الشبيهة ببنات آوى، تدور حولنا وهي تعوي، وتُرينا أنيابها الباهتة.

بدا «النذلُ» كالمجنون من الفرح، فوثب عن حصانه وأمسك بالحبل الذي جلبتُه، وقال:

- انتبهوا، يا أولاد، ليترجّل منكم اثنان.

حينئذ عمل شيئاً رهيباً وغريباً؛ مسبحة من السجناء، أو على الأصح مسبحة من المشنوقين. لقد ربط بقوة معصمي أول أسير، ثم عمل أنشوطة حول عنقه بالحبل نفسه الذي شُدَّ أيضاً على ذراع الأسير الذي يليه، ثم التفّ بعد ذلك على رقبته. وهكذا أصبح السجناءُ الخمسون مربوطين بحيث أن أقل حركة للهرب تخنق صاحبها كما تخنق جاريْه. كل حركة يقومون بها كانت تشدّ على أنشوطة العنق، وكان عليهم أن يسيروا بخطاً متساوية دون أن ينحرف أحدهُم عن الآخر أدنى انحراف، وإلا سقطوا على الفور كأرنب اصطيد بأنشوطة.

عندما انتهى هذا العمل الغريب أخذ يضحك ضحكة الصامت الذي هزّ بطنه من غير أن يصدر صوتٌ من فمه، وقال:

فهذه هي السلسلة العربية.

نحن أنفسنا أخذنا نتلّوى مه الضحك أمام وجوه السجناء المرتعبة والمسكينة.

صاح قائدنا:

والآن اربطوا وتداً بكل من طرفي الحبل.

ثُبِّت، بالفعل، وتدٌ في كلٍ من طرفي شريط الأسرى البيض الشبيهين بالأشباح، والذين ظلّوا جامدين وكأنما تحولّوا إلى حجارة.

قال التركي:

- لنتناولْ غداءنا.

أُوقدتْ النار وشُوِي خروفٌ قطّعناه بأيدينا. ثم أكلنا تمراً عثرنا عليه في الخيام؛ وشربنا حليباً حصلنا عليه بالطريقة نفسها، ولممنا بعض الحليّ الفضيّة التي نسيها الهاربون.

انهينا وجبتنا بهدوء، عندما شاهدتُ، على الرابية المقابلة تجمّعاً غريباً. كان تجمّع النساء اللواتي نجونَ قبل قليل. لا أحد غير النساء. جئن إلينا راكضات. نبّهتُ التركيّ إليهن، فابتسم وقال:

- هذه هي التحلية!

آه! نعم، التحلية!

وصلنَ، وهن يجرين كالمجنونات، وما لبثن أن خرقْننا بالحجارة التي كن يرميننا بها دون أن يوقفن جريهنّ، ورأينا أنهن كنّ مسلّحات بالسكاكين، وبأوتاد الخيام وبالأواني.

صاح محمد: «إلى خيلكم!».

حان الوقتُ كان الهجوم رهيباً. جئن ليخلّصن الأسرى وسعيْن لقطع الحبل. وعندما أدرك التركيًّ الخطر هاج وصرخ: أعْملوا السيفَ! أعملوا السيف! أعملوا السيف! وبما أننا ظللنا بلا حراك، مضطرين أمام هذا الهجوم الجديد من نوعه، متردّدين في قتل النساء، اندفع على جمهور النساء

المهاجمات. حمل، وحده على هذا الكتيبة من النساء، بثيابهن البالية، وأعمل فيهن السيف، ذلك الحقير، كالمجنون، بهياج وحدّة شديدين حتى كان يرى جسداً أبيض يسقط في كل مرة تنقضّ ذراعه.

كان رهيباً إلى حدّ أن النساء المرتعبات هربن بالسرعة التي جئن بها، تاركات في الموضع نحو اثنتي عشرة امرأة ميتة أو جريحة خضبت دماؤهن الثيابَ الباهتة.

ثم رجع بوجهٍ منقلب وهو يردد:

- لنمضِ، لنمضِ، يا أولاد، فسوف يَعدن.

وانسحبنا ونحن نقود بخطا وئيدة سجناءَنا الذين شلّهم خوفُهم من الاختناق.

في اليوم التالي، كان الوقتُ ظهراً عندما بلغنا «بوغار» بسلسلة من المشنوقين. لم يمت منهم سوى ستة في الطريق. لكن كان لا بدّ في الغالب، من إرخاء العقد من أول الموكب إلى آخره، لأن كل مرّة كانت تخنق دفعةً واحدة نحو عشرة أسرى.

صمت النقيبُ. لم أُجب بشيء. فكرتُ في ذلك البلد الغريب حيث يمكن أن تُرى مثلُ هذه الأشياء! ونظرت إلى قطيع النجوم الذي لا حصر له، والملتمع في السماء.

▪ الحارس ▪

كانت تُروى، بعد الغداء، مغامرات الصيد وحوادثه.

قال فجأة صديقٌ قديمٌ لنا جميعاً، السيد «بونيفاس» وهو فتّاك بالحيوانات، وشرّيب للخمر، ورجلٌ قويٌ ومرح، عظيم النباهة والفهم والفلسفة، الفلسفة الساخرة والمستسلمة، التي تتجلّى بالطرافات القارسة لا بالأحزان:

– إني أعرف قصةً، قصة صيد، أو بالأحرى فاجعة صيد فريدة جداً. وهي لا تُشبه بتاتاً ما نعرفه بهذا الصدد: ولذلك لم أَروها قط، لاعتقادي أنها لا تُسلّي أحداً.

ليست جذّابة، أتفهمون؟ أعني: ليس لها ذلك الضربُ من التشويق الذي يَفْتن، أو يسحر، أو يقع موقعاً ساراً.

الخلاصة، هذه هي القصة.

كان عمري آنذاك خمسة وثلاثين عاماً تقريباً، وكنت أمارس الصيد كالمجنون.

في ذلك الزمان، كنت أملك أرضاً منعزلةً جداً في ضواحي «جوميج» تحيط بها الغاباتُ، وصالحة للأرانب كنتُ أذهب لأقضي فيها وحدي أربعة أيام أو خمسة فقط، في السنة وكان المنزلُ لا يسمح لي بأن آتي بصديق.

عيّنتُ فيها حارساً، هو دركيٌّ متقاعد، ورجلٌ طيبٌ، عنيف، قاسٍ في تطبيق التعليمات، مرعبٌ للصيّادين المخالفين، ولا يخشى شيئاً. كان يسكن وحده، بعيداً عن القرية، منزلاً صغيراً أو بالأحرى كوخاً مؤلفاً من غرفتين صغيرتين في الأسفل، المطبخ وغرفة المؤن، وغرفتين في الطابق الأول، إحداهما، خصّ لا يتسع لغير سرير وخزانة وكرسي، مخصّص لي.

كان العم «كافالييه» يشغل الغرفة الأخرى. عندما قلتُ إنه كان وحده في هذا المسكن أخطأتُ التعبير، إذ اصطحب للسكن معه ابن أخيه، وهو

وغدٌ ابن أربعة عشر عاماً كان يذهب للتموّن من قرية تبعد ثلاثة كيلومترات، ويساعد العجوز في الأعمال اليومية.

كان هذا الصبيّ الهزيل، الطويل، المعقوف الأنف قليلاً، ذا شعرٍ أصفر، خفيف جداً ظهر كالأصلع. وفضلاً عن ذلك كانت قدماه ضخمتين، ويداه بالغتي الكبر، يدا ماردٍ.

كان أحول قليلاً لا ينظر أبداً إلى أحد. كان، بين البشر، يترك فيّ الأثر الذي تتركه الحيوانات المنتنة بين الحيوانات. كان هذا الصبيُّ الوقحُ ابن عرس أو ثعلباً.

كان ينام في حجر ضيّق في أعلى الدرج الذي يقود إلى الغرفتين.

لكني، أثناء إقاماتي القصيرة، في الجناح -كنتُ أدعو هذا الكوخ جناحاً- كان ماريوس يَدع كوّته لامرأة عجوزٍ من «ايكورشفيل»، تُدعى «سيليست»، كانت تأتي لتُعدّ لي طعامي، إذ كانَ طبخ العم كافالييه غليظاً لا يفي بالحاجة البتّة. عرفتم إذن الشخصيات والمكان. إليكم الآن المغامرة:

كان ذلك في سنة ١٨٤٥، في ١٥ تشرين الأول- أذكر هذا التاريخ ولن أنساه أبداً.

سافرتُ من روان خيّالاً يتبعني كلبي، كلب صيد كبير، عريض الصدر، كثير العواء والحركة، يتحرى أدغال العوسج مثل كلب السبنيلي.

كنت أضع خلفي حقيبة السفر وأتقلد بندقيتي. كان يوماً بارداً تهبّ فيه ريحٌ باردةٌ حزينة، مع غيوم مكفهرّة تجوب السماء.

نظرتُ، وأنا أصعد سفح «كانتيلو» إلى وادي السين العريض الذي يجتازه السين بمنعرجات كمنعرج الحية. وكانت «روان» إلى اليسار تنتصب قببُ أجراسها، وإلى اليسار، كان النظر يتوقف على الضفاف البعيدة المغطّاة بالغابات. ثم اجتزتُ غابة «رومار» سائراً بتؤدة حيناً، وخبباً حيناً آخر،

ووصلتُ حوالي الساعة الخامسة إلى «الجناح» حيث كان العم «كافاليه» و«سيليست» ينتظرانني.

منذ عشر سنوات، كنت أحضر في الفترة نفسها، وبالطريقة نفسها، وكانت الأفواه نفسها تحييني بالكلمات نفسها.

- يومك سعيد، يا سيّدنا، هل الصحة مُرضية.

لم يكد يتغيّر كافاليه. كان يقاوم الزمن مثل شجرة عتيقة؛ لكن سيليست، منذ أربع سنوات، تغيّرت حتى لم تعد تُعرف. انكسر ظهرها وإن ظلت نشيطة، وكانت تمشي وجذعها مُنحنٍ إلى الأمام حتى ليكاد يكوّن مع الساقين زاوية قائمة.

وكانت المرأة العجوز، العظيمة الإخلاص، تبدو أبداً متأثرة وهي تلقاني، فتقول لي عند كل سفر:

- ينبغي الاعتقاد أن هذه ربما كانت آخر مرة، يا سيدي العزيز.

وكان الوداع الحزين، المتخوّف، من هذه الخادمة الحزينة، وذلك الإذعان اليائس زمام موتها المحتّم والقريب من غير شك، يهزّ قلبي كلّ عام، بشكل غريب.

ترجّلتُ إذن، وبينما قاد كافاليه» الذي شددتُ على يده، الجواد إلى المبنى الصغير الذي اتُّخذ اصطبلاً، دخلت، تابعاً «سيليست» إلى المطبخ الذي اتُّخذ أيضاً غرفة طعام.

ثم انضمّ إلينا الحارسُ. رأيت من أول نظرة، أن ليس له هيئته العادية. بدا منهمكاً، متضايقاً، قلقاً.

قلتُ له:

- حسناً، كافاليه، هل كل شيء يسير على ما ترغب.

- نعم ولا . هناك أشياء لا تلائمني .

سألتُ :

- وماذاك ، ياصاحبي . اروها لي .

لكنه أخذ يهزّ رأسه :

- لا ، لن أروها الآن . لا أريد أن أشغل بالكَ هكذا عند وصولك بمضايقاتي .

ألححتُ ؛ لكنه رفض رفضاً قاطعاً أن يخبرني قبل الغداء . بيد أني أدركتُ ، من عناده ، أن الأمر خطيرٌ .

ولما لم أدر ما أقول قلت :

- والطريدة ، أهي موجودة؟

- أوه ! من جهة الطريدة ، نعم هي موجودة ! سجد على مرادك . الحمد لله ، لقد كنتُ متيقظاً .

كان يقول هذا بكثير من الرزانة ، برزانة آسفة إلى حدّ غدت معه مضحكةً . وبدا شارباه الكبيران الرماديان كأنهما يوشكان على السقوط من شفتيه .

فجأة انتبهتُ إلى أنني لم أر بعد ابن أخيه :

- وماريوس؟ أين هو ، يا ترى؟ لماذا لم يظهر؟

انتقض الحارسُ ، ونظر إليّ فجأة في وجهي :

- طيب ، ياسيدي ، أفضّل أن أشرح لك الأمر على الفور ؛ نعم أفضّل ؛ وبسببه أنا مغتمٌ .

- آه ! آه ! وأين هو إذن؟

- هو في الاصطبل، يا سيدي، وكنت انتظر لحظةً لكي يخرج.

- وماذا فعل إذن؟

- إليك القصة، ياسيدي...

بيد أن الحارس تردّد أيضاً، وتغيّر صوته، وتهدّج، وانحفرت في وجهه على حين عرّة تجاعيدُ عميقة، تجاعيد عجوز.

استأنف ببطء:

- رأيتُ، في هذا الشتاء، أن هناك مَنْ يصطاد بالحبالة سرا في غابة «روزريه»، لكنني لم أستطع أن أمسك بذلك الرجل. قضيتُ فيها، يا سيدي ليالي َوليالي. ولم أعثر على شيء. وأثناء هذا الوقت، بدأ الصيدُ من جهة «ايكورشفيل».

هزلتُ من الغيظ. أما القبض على ذلك اللص فكان غير ممكن. فكأنما كان ذلك الحقير على علم بطلعاتي وخططي.

لكن ها أنا ذا أعثر، ذات يوم، بيمنا كنت أنظف بالفرشاة بنطال «ماريوس» على أربعين فلساً في جيبه. من أين جاء الولدُ بهذا المال؟

فكّرتُ في ذلك ثمانية أيام، ورأيتُ أنه يخرج، يخرج بالضبط عندما أعود للراحة، نعم، ياسيدي.

حينئذٍ صرت أراقبه، لكن دون أن أشك في أي شيء. أوه! نعم، دون أن أشك. اضطجعت أمامه، ذات صباح، ونهضت فوراً واقتفيته. ليس مثلي أحدٌ، ياسيدي، في الاقتفاء.

وها أنا ذا أُلقي القبضَ عليه، على ماريوس، وهو يصطاد بالحبالة في أراضيك، ياسيدي، هو، ابن أخي أنا، حارسكَ.

فار دمي وكدت أقتله لفرط ما ضربتُهُ. آه! نعم، ضربته ضرباً مبرّحاً!

وأوعدته بأنك عندما تحضر فسوف ينال مثلها بحضورك، تأديباً له، بيدي، ليكون ذلك عبرةً له.

انظرْ؛ لقد هزلتُ من الحزن. أتعلم ما معنى أن يعاكسنا أحدٌ هكذا. لكن ماذا كنت تفعل، قلْ؟ ليس له أبٌ ولا أمٌّ، هذا الصبي، لا سند له من دمه غيري؛ احتفظتُ به، وليس بوسعي أن أطرده، أليس كذلك؟

لكني قلت له: إن عاد إلى فقد انتهى الأمرُ، لمنتهى، ولن أرحمه. هذه هي القصة. هل أحسنتُ صنعاً، يا سيدي.

أجبتُ وأنا أمدُّ إليه يدي:

- أحسنتَ صنعاً، كافالييه؛ أنت رجل شهمٌ.

نهض.

- شكراً جزيلاً، يا سيدي. الآن سأبحث عنه. لا بد من التأديب ليكون عبرةً.

كنت أعلم أن لا جدوى من محاولة صرف العجوز عن مشروعه. فتركتُه يتصرّف على هواه.

ذهب ليُحضر هذا الصبي الوغد وجاء به وهو يُمسك بأذنه. كنت جالساً على كرسيّ من قشٍ رصين الهيئة كالقاضي.

بدا لي ماريوس «قد كبر، وازداد قبحاً عن السنة الفائتة، بمظهره الشرير والماكر. وبدت يداه هائلتين.

دفعه عمُّه أمامي وقال له بصوته العسكري.

- اطلب العفو من صاحب الأرض.

لم يقل الصبّي كلمة واحدة. حينئذ أمسك به الدركيُّ القديم من إبطيه، ورفعه عن الأرض، وأخذ يرفسه بعنف شديد حتى إني نهضتُ لأوقف ضرباته.

طفق الولد يزعق:

- الرحمة! -الرحمة! -الرحمة! - أعِدُ. . .

وضعه «كافالييه» على الأرض، وأجبره أن يركع بالضبط على كتفيه، وقال:

- اطلب العفو.

همس الصبي وهو خافضٌ عينيه:

- عفواً.

حينئذٍ أنهضه عمُّه وصرفه بصفعة كادت تقلبه.

هرب ولم أره طوال المساء.

لكن «كافالييه» بدا مذهولاً. قال:

- تلك طبيعة شريرة.

وأثناء الغداء ظل يكرّر:

- أوه! هذا يحزنني، ياسيدي، لا تعلم كم يحزنني هذا.

حاولتُ أن أُسرّي عنه، لكن دون جدوى.

ونمتُ في ساعة مبكرة لكي أبدأ الصيد عند انبلاج النهار.

كان كلبي مايزال نائماً، على الأرض، عند قاعدة السرير، عندما أطفأتُ مصباحي.

أفقتُ نحو منتصف الليل على نباح الكلب الهائج. وتبيّنتُ على الفور أن غرفتي كانت ممتلئة بالدخان. وثبتُ من سريري، وأشعلتُ مصباحي، وركضتُ إلى الباب وفتحتُه. دخلتْ زوبعةٌ من الدخان. كان البيتُ يحترق. أغلقتُ بسرعة المصراع السندياني الضخم، ولستُ بنطالي فأنزلتُ أولاً كلبي

من النافذة، بواسطة حبلٍ صنعته من الأغطية المفتولة، ثم ألقيتُ بثيابي وجعبتي وبندقيتي، وتخلصت بدوري بالطريقة نفسها.

وأخذتُ أصرخ بكل قواي: -كافالييه! -كافالييه! - كافالييه!

لكن الحارس لم يستيقظ كان نومهُ ثقيلاً، نومُ دركي قديم. بيد أني لا حظت من النوافذ السفلي أن الغرف الأرضية غدت جمراً حامياً، ورأيتُ أنها قد مُلئت بالقش لتسهيل الحريق. وإذن فقد أُحرقُ البيتُ على يدي أحدهم.

أخذت أصرخ من جديد بشدة حانقة: - كافالييه!

حينئذ خطرتْ لي فكرةٌ وهي أن الدخان كان يخنقه وأُلهمت الشيء التالي، عبأتُ خرطوشتين في بندقيتي وأطلقت طلقة على النافذة مباشرة.

تحطّمت الألواحُ الستة في الغرفة إلى فُتات زجاجي. سمع العجوزُ هذه المرة، وظهر مرتعباً، بالقميص وحده، وقد جُنَّ بخاصة من ذلك الضياء الذي كان ينير بشدة مقدّمة مسكنه. صحتُ به:

- منزلكَ يشتعل اقفزْ من النافذة، أسرعْ أسرعْ!

كان اللهب الذي خرج فجأة من الفتحات السفلى يلامس الجدران، ويصل إليه، ويوشك أن يحبسه. قفز، وسقط على قدميه، كالهرّ.

آن الآوان. انحطم سقفُ القصب من الوسط، فوق الدرج الذي كان يؤلف، نوعاً ما، مدخنة للنار من تحت؛ وارتفعت في الهواء حزمةٌ حمراء أخذت تَعْرضُ مثل قنزعة فوّارة ماء، وتنتشر وابلاً من الشرار حول الكوخ. وفي بضع ثوان تحولت إلى باقة من اللهب.

- سأل «كافالييه» وهو ذاهل:

- كيف اشتعل ذلك؟

أجبتُ:

- أشعلَ المطبخُ.

همسَ:

- من ذا الذي أشعل الحريق؟

- وفجأة حزرتُ فقلتُ؟

- ماريوس!

أدرك العجوز فتمتم متلعثماً:

أوه! يا يسوع ابن مريم! من أجل ذلك لم يعد.

ومرّت ببالي فكرة رهيبة، فضحكتُ:

- و«سيليست»؟ سيليست؟

لم يجب لكن المنزل انهار مشكّلاً مجمرةً سميكةً، باهرةً مُعميةً داميةً، محْرقةً هائلة، لا بد أن المسكينة صارت فيها فحمةً حمراء، فحمة من اللحم البَشري.

السقيفة المجاورة، فكرّتُ فجأة بحصاني، وهُرع «كافالييه» إلى إنقاذه.

ما كاد يفتح باب الاصطبل حتى مرّ من بين ساقيه جسمٌ مرنٌ وسريع، فرماه على أنفه. كان هذا هو ماريوس هارباً بكل قواه.

نهض الرجلُ في مدى ثانية. وأراد أن يركض ليقبض على هذا الشقي، لكنه أدرك أنه لن يُفلح في ذلك؛ جُنّ جنونه بغيظ مضطرم لا يُقاوم، واستسلم لحركة من تلك الحركات العفوية، ابنة لحظتها، التي لا يمكن التنبّؤ بها أو كبحها، فتناول بندقيتي التي ظلت على الأرض وقبل أن أتمكن من الإتيان بحركة، أطلق النار حتى دون أن يعلم إن كانت البندقية معبأة. لم تُطلَقْ إحدى الطلقتين التي كنتُ عبأتهما للإنذار بالحريق، فأصابت حشوتُها

الهارب في وسط ظهره، ورمته أرضاً مضرّجاً بدمه. وسرعان ما أخذ يحكّ الأرض بيديه وركبتيه كأنه يريد أن يجري بأطرافه الأربعة، شأن الأرانب المجروحة جرحاً قاتلاً وهي ترى الصيّاد مقبلاً.

اندفعت. كان الولد يُحشرج. ولفظ أنفاسه قبل أن يخمد الحريق، دون أن يفوه بكلمة.

ظل «كافالييه» وهو بقميصه وحده، عاري الساقين، واقفاً، جامداً، متبلّداً.

عندما وصل أبناءُ القرية، أُخذ الحارسُ وهو كالمجنون. مثلتُ في الدعوى كشاهد، ورويتُ الأشياء بالتفصيل دون أن أغير شيئاً. بُرّئ «كافالييه». لكنه توارى في اليوم نفسه، تاركاً المنطقة.

ولم أره بعد ذلك.

هذه هي، ياسادتي، حكايةٌ من حكايات الصيد.

بيرت Berthe

طالما دعاني صديقي القديم (قد يكون لنا أصدقاء أكبر منا بكثير) الدكتور «بونيه» لقضاء بعض الوقت عنده في «ريوم». لم أكن أعرف «الاوفيرنيي» فقرّرتُ أن أزوره في منتصف صيف ١٨٧٦ .

وصلتُ في قطار الصباح، وكان أولُ وجه شاهدتهُ على رصيف المحطة وجهَ الدكتور . كان يرتدي بذلةً رمادية، ويضع على رأسه قبعة مدوّرة سوداء من اللباد الرخو، عريضة الحواشي، وأوسطها شديد الارتفاع آخذ في الضيق على شكل مدخنة، قبعة أوفيرنيّةٌ حقيقيّةٌ تشي برائحة الفحّام. كان الدكتور يبدو بهذا اللباس، شاباً قديم الشباب، بجسمه النحيف تحت سترته الفاتحة ورأسه الضخم الأبيض الشعر.

عانقني بفرح ظاهرٍ، فرح أبناء الريف بقدوم الأصدقاء الذين طال اشتياقهم إليهم، ثم مدّ يده حوله وهتف؛ وهو مُفْعم بالاعتزاز: هاهي ذي «الافيرنيي»! لم أكن أرى سوى صف من الجبال أمامي، قممُها شبيهة بمخروطات بُترت رؤوسها، ولابد أنها براكين قديمة.

ثم رفع اصبعه نحو اسم المحطة المكتوب في صدرها، ولفظ «ريوم»، موطن القُضاة، فخر القضاء، والتي لا شك أنها ستغدو موطنَ الأطباء.

سألتهُ: «ولمَ»؟

أجاب، وهو يضحك: «لمَ»؟ اقلبْ هذا الاسم وستحصل على «مور»-. . الموت. .

«من أجل ذلك إنما أقمتُ، أيها الشاب، في هذه الديار.» وجرّني، مغتبطاً بنكتته، وهو يفرك يديه.

كان عليّ، بعد أن تناولتُ فنجان القهوة، أن أزور المدينة القديمة. أُعجبتُ بمنزل الصيدلي، والمنازل الأخرى الشهيرة، السوداء كلياً والجميلة

كالتحف، بواجهاتها من الحجر المنحوت. أُعجبتُ بتمثال العذراء، شفيعة اللحامين، وسمعتُ بهذا الصدد قصةَ مغامرةٍ مسلّية سوف أرويها فيما بعد، ثم قال لي الدكتور بونييه: «أستأذنك الآنَ خمس دقائق لأزور مريضةً، وسآخذك بعد ذلك إلى هضبة «شاتيل غويون»، لكي أُريكَ، قبل الغداء، منظراً عاماً للمدينة ولسلسلة «بوي دي دوم» كلها. تستطيع أن تنتظرني على الرصيف وسأهبط على الفور.

تركني قُبالةَ إحدى دور الريف المعتمة، المغلقة، الخرساء، الكالحة، ولقد بدت لي هذه الدار في هيئةٍ كئيبةٍ أشد الكآبة، ولم ألبث أن اكتشفتُ السبب. كانت جميع النوافذ الكبرى في الطابق الأول مغلقةً حتى نصفها بمصاريع خشبية مصمتة. وكان أعلاها وحده ينفتح وكأنما كان يُراد منعُ الناس المسجونين في هذا الصندوق الحجري من النظر إلى الشارع.

وعندما هبط الدكتور ذكرتُ له ملاحظتي فأجاب: «أنت لم تخطئ. فالكائن المسكين المحبوسُ في الداخل لا ينبغي له أن يرى ما يجري في الخارج. هذا الكائن مجنونةٌ، أو على الأصح بلهاء، أو بالأحرى بسيطة؛ أوغبية كما تقولون أنتم في «النورماندي».

«آه! اسمعْ، إنها قصةٌ مُغْمةٌ، وهي في الوقت نفسه حالةٌ مَرَضيّةٌ فريدة. أتريد أن أقصّها عليك.

وافقتُ. فاستأنف كلامه:

«منذ عشرين عاماً رُزِق أصحابُ هذه الدار، وهم زَبُني، طفلاً، بنتاً شبيهة بسائر البنات. لكنني سرعان ما رأيتُ جسد هذا الكائن الصغير إن كان يتطور على نحوٍ رائع فإن ذكاءه ظلّ خامداً.

مشتْ في وقت مبكّر، لكنها امتنعت عن الكلام إطلاقاً. ظننتُها في بادئ الأمر صمّاء؛ ثم تبيّنت أنها تسمع تماماً لكنها لا تفهم. وكانت الأصوات الشديدة تُرعشها وترعبها دون أن تدرك أسباب تلك الأصوات.

كبرتْ؛ كانت رائعةً وخرساء، خرساء بسبب فقدان الذاكرة. حاولتُ بجميع الوسائل أن أجلب إلى هذا الرأس شيئاً من ضياء التفكير؛ فأخفق مسعاي. ظننتني لاحظتُ أنها تتعرّف مرضعتها، لكنها ما إن فُطمتْ حتى كفّت عن التعرّف على أمها. ولم تستطيع أن تقول كلمة: «ماما» وهي الكلمة الأولى التي يتلفظ بها الأولاد، والكلمة الأخيرة التي يهمس بها الجنود المائتون في ميادين القتال: «ماما» كانت تحاول التأتأة والضغيب أحياناً، ولا شيء أكثر من ذلك.

كانت، إذا صحا الجوُّ، تضحك طوال الوقت مُطلقةً صرخات خفيفة يمكن تشبيهها بزقزقات عصفور؛ فإذا أمطرت السماء أخذت تبكي وتنتحب على نحوٍ مغمٍّ، مخيف، كمثل شكاة الكلاب التي تعوي عواء الموت.

كانت تحب أن تتقلّب على العشب كما تتقلّب الحيواناتُ، الفتيّة، وأن تركض كالمجنونة، وكانت تصفق بيديها كل صباح عندما ترى الشمس تدخل غرفتها، وكانت عندما تُفتح نافذتُها تصفق بيديها وهي تضطرب على سريرها لكي تلبس ثيابها على الفور.

ثم إنها لم يكن يبدو عليها أنها تميّز أيَّ تمييز بين الناس، بين أمها ومربّيتها، بين أبيها وبيني، بين الحوذيّ والطاهية.

كنتُ أحبّ والديها البائسين جداً، وكنت آتي في كل يوم تقريباً لأراهما. وغالباً ما كنتُ أتعشى عندهما، ممّا أتاح لي أن ألاحظ أن بيرت» (لقد سُمّيت «بيرتْ») أخذت تتعرّف ألوانَ الطعام وتفضّل بعضاً على بعض.

كان عمرها حينئذٍ اثني عشر عاماً. كانت بالغةً كابنة ثمانية عشر تماماً، وكانت أطول مني.

خطرت لي إذن فكرةُ تنمية نهمها إلى الطعام، ومحاولة إدخال بعض الفروق في فكرها بهذه الوسيلة، وحملها باختلافات في المذاقات، وبسلّم طعم الأطعمة، حملها على تمييزات غريزية على الأقل إن لم يمكن حملها على المحاكمة، لكنها تمييزات قد تكوّن ضرباً من العمل المادي للتفكير.

كان علينا بعد ذلك، إن نحصل، مستعينين بأهوائها، ومنتقين بعناية التي يمكن أن تخدمنا، لنحصل على صدمة مرتدّة، صدمة الجسم للذكاء؛ ونزيد شيئاً فشيئاً العمل غير المحسوس لدماغها.

وإذن فقد وضعتُ إزاءها، ذات يوم، صحنين، أحدهما من حساء والآخر من القشدة بالفانيليا شديدة الحلاوة. وجعلتها تذوق بالتناوب من هذا ومن ذاك. ثم تركتها تختار بحرية، فأكلتْ صحن القشدة.

جعلتُها في قليل من الزمن نهمةً جداً، نهمة إلى الحد الذي بدت فيه كأنما لم يبق في رأسها سوى فكرة الأكل، أو على الأصح سوى شهوة الأكل. كانت تتعرف تعرّفاً تاماً ألوان الطعام، وتمدّيدها إلى ما يعجبها وتستحوذ عليه بشراهة. وكانت تبكي إذا رفع من عندها.

فكرّتُ حينئذ بأن أعلّمها المجيء إلى غرفة الطعام على رنين الجرس. استغرق ذلك زمناً طويلاً؛ بيد أنني أفلحتُ في ذلك. ومن المؤكد أنه قد ينشأ في ذهنها المبهم ارتباط متبادل بين الأصوات والمذاق، أي نشأت علاقة بين حاستين، نداء من إحداهما إلى الأخرى، ومن ثم نوعٌ من ترابط الأفكار- إن كنا نستطيع أن ندعو ذلك النوع من الصلة الغريزية بين وظيفتين عضويتين فكرةً.

مضيتُ في تجربتي إلى أبعد من ذلك، فعلّمتها -وماكان أشقّ ذلك!- أن تتعرّف ساعة الوجبات على ميناء الساعة الجدارية.

تعذّر علي زمناً طويلاً، أن ألفت انتباهها إلى عقارب الساعة، لكنني نجحتُ في لفت نظرها إلى دقائها. كانت الوسيلةُ بسيطة: ألغيتُ جرس الطعام، وكان الجميع ينهضون إلى المائدة عندما تُعلن المطرقةُ النحاسية الثانية عشرة.

عبثاً بذلتُ وسعي، قبلاً، في أن أعلمها كيف تعدّ الضربات. كانت

تُهرع إلى الباب كلما سمعتْ رنين الضربة، ولكنها تبيّنتْ حينئذ، شيئاً فشيئاً، أن الدقات ليس لها نفسُ القيمة بالنسبة إلى الوجبات، فأخذتْ عينُها المنقادة إلى أذنها على الميناء، في أغلب الأحيان.

ولما لاحظتُ ذلك، كان همي كل يوم، عند الظهر وفي الساعة السادسة، أن أذهب وأضع اصبعي على الرقم اثني عشر والرقم ستة، حالما تحين اللحظةُ التي تنتظرها ومالبثتُ أن رأيتُ أنها أخذت تتابع بانتباهٍ سير العقربين النحاسيين الصغيرين اللذين غالباً ما دوّرتهما بحضورها.

لقد فهمتْ. بل بالأحرى أن أقول: لقد التقطت.. توصلتُ إلى إدخال المعرفة بالساعة أو على الأصح الإحساس بها إلى نفسها، كما يُتوصّل إلى ذلك مع سمك الشبوط، الذي لا يستعين بتقويم الساعات، وذلك بإعطائه ما يأكل كل يوم، في اللحظة نفسها.

وما إن حصلتْ هذه النتيجةُ حتى شغلتْ انتباهها الآلات المتصلة بالساعات والموجودة في المنزل، دون غيرها. كانت تقضي وقتها في النظر والاصغاء إليها وفي انتظار الساعات حتى لقد وقع شيءٌ غريب. وذلك أن جرس ساعة جدارية جميلة من طراز لويس السادس عشر معلّقة عند رأس سريرها تعطّلت فلاحظتْ ذلك. انتظرت عشرين دقيقة وعينُها على العقرب لكي يُعلن الجرسُ الساعة العاشرة. لكن عندما تجاوز العقرب الرقم ذُهلت لأنها لم تسمع شيئاً، ذُهلت ذهولاً شديداً حتى إنها جلستْ، وقد هزّها من غير شك، أحدُ تلك الانفعالات العنيفة التي تهزّنا أمام الكوارث العظيمة. ثم إنها أوتيت ذلك الصبر الغريب في أن تظل أمام تلك الآلة الصغيرة حتى الساعة الحادية عشرة لترى مالذي سيحدث. فلم تسمع شيئاً بطبيعة الحال. وحينئذ استولى عليها فجأة إمّا ذلك الغضبُ الجنوني للكائن المخدوع الخائب الأمل أو فزعُ الكائن المرتعب أمام سرّ رهيب، وإما الجزعُ الهائجُ للكائن المشبوب العواطف الذي يواجه عقبة، فتناولت ملقط المدفأة وضربت به الساعة الجدارية بقوّة شديدة حطمتها في ثانية.

وإذن لقد أخذ دماغُها يعمل، ويحسب، ولو على نحو غامض، وفي حدودٍ جدّ ضيّقة، لأنني لم أستطع أن أجعلها تميّز الأشخاص كما تميّز الساعاتِ. كان لابد، لكي نحصل على حركةٍ ذكيّة، أن نستعين بشهواتها، بالمعنى المادي لهذه الكلمة.

لم نلبث أن حصلنا على دليل آخر، فظيع، مع الأسف! لقد غدت رائعة، كانت حقاً نموذجاً لعرقها، كانت ضرباً من «فينوس» فاتنة وغبيّة.

بلغتْ الآن السادسة عشرة، ونادراً ما رأيتُ مثل هذا الكمال الأنثوي، مثل هذه اللدونة، ومثل انتظام القسمات ذاك. قلتُ «فينوس»، نعم فينوس شقراء، ممتلئة، قويّة، بعينين كبيرتين اضافيتين، زرقاوين مثل زهرة القنّب، وفم عريض مدوّر الشفتين، فم امرأةٍ نهمة، شهوانية، فم للقبل.

وذات صباح، دخل أبوها عليّ بوجه غريب، وجلس دون أن يردّ على تحيتي، وقال:

- أود أن أحدثك عن شيء خطير جداً... هل... هل نستطيع أن نزوّج «بيرت»؟

انتفضتُ من الدهشة وهتفتُ: «تزُوّج «بيرت»؟... لكن ذلك غير ممكن!»

أردف:

- نعم... أعلمُ... لكن فكِّر، يادكتور... ذلك أنه... ربما... رجونا... لو كان لها أولاد... لكان ذلك حرياً أن يهزّها، أن يكون سعادتها العظمى.. ومَنْ يَدْري إن كان ذهنها لا يتفتّح في الأمومة؟...

انتابتني حيرةٌ شديدة. ماقاله صحيحٌ. فلعل هذا الشيء الجديد، هذه الغريزة العجيبة، غريزة الأمهات التي تنبض في قلب الوحوش كما تنبض في قلب النساء، التي تجعل الدجاجة ترمي بنفسها في شدق الكلب لتحمي

صغارها، لعل هذه الغريزة تحمل ثورةً، انقلاباً إلى هذا الرأس الخامل، وتشغّل آلية تفكيرها التي لا حراك فيها.

تذكرتُ على الفور مثلاً شخصياً. كان عندي لسنوات خلتْ كلبة صيد غبيةٌ جداً حتى أني لم أُفدْ منها شيئاً. فلما صار لها صغار غدتْ بين يوم وليلة، لا أقول ذكية، بل غدت تقريباً مثل كثير من الكلاب القليلة النموّ.

ما كدتُ ألمح هذا الإمكان حتى تعاظمت رغبتي في تزويج «بيرت»، لا بسبب مودتي لها ولوالديها المسكينين بقدر ما هو بسبب الفضول العلمي ماذا سيحدث؟ كان ذلك مشكلة فريدة!

وإذن فقد أجبتُ الأبَ:

- لعلك محقٌ... يمكن أن نحاول... حاولْ... لكن... لكن... لكنك لن تجد أبداً رجلاً يوافق على ذلك.

قال بصوت خافت:

- لديّ رجلٌ.

دُهشتُ. فتمتمتُ: رجل صالح؟... رجل من عالمكَ؟...

أجاب:

- نعم... تماماً.

- آه! و... هل يمكنني أن أسألك عن اسمه؟

- جئت لأقوله لك ولأستشيرك. إنه «غاستون دي بويز دي لوسيل!»
كدت أصرخ: «البائس!» لكنني سكتُّ، وقلتُ بعد صمتٍ:

- نعم، حسنٌ جداً. لا أرى أيّ مانع.

شدّ المسكين على يديَّ وقال:

- سنزوجّها في الشهر القادم.

كان السيد «غاستون دي بويز دي لوسيل» ولداً فاسداً من أسرة كريمة بدّد إرث أبيه واستدان بآلاف الوسائل غير الشريفة، فأخذ يبحث عن أية وسيلة جديدة للحصول على المال.

ووجد هذه الوسيلة.

كان فتى جميلاً، موفور الصحة، لكنه منغمس في لذات العيش سليل ذلك النسل الكريه من أبناء الريف المنغمسين في اللذات، لكني رجوتُ أن يكون زوجاً يمكن التخلص منه فيما بعد يمرتّب.

جاء إلى البيت ليغازل هذه الفتاة البلهاء وليتبختر أمامها. وبدا لي كأنما أعجبته. كان يحمل لها أزهاراً، ويقبل يديها، ويجلس عند قدميها، ونظر إليها بعينين رقيقتين؛ لكنها لم تكن تنتبه إلى أية بادرة من بوادر لطفه، ولم تكن تميّزه البتّة عن الأشخاص الآخرين الأحياء حولها.

تمّ الزواج.

أنت تفهم إلى أي حدٍّ اشتعل فضولي.

جئتُ في اليوم التالي لأرى «بيرت» ولأتلمّس على وجهها إن كان شيءٌ قد اختلج فيها. لكني وجدتُها كما كانت في الأيام السابقة، مهتمة فقط بالساعات الجدارية وبالطعام. أما هو، فبدا على العكس، مأخوذاً بها، محاولاً أن يثير مرح عروسه ووداها بألعاب صغيرة ومداعبات كالتي نستعملها مع الهررة الصغيرة.

لم يجد ما هو أفضل من ذلك.

أخذتُ حينئذٍ أتردّد على العروسين، وسرعان ما رأيت أن المرأة صارت تتعرّف زوجها وترميه بنظرات متلهّفة لم تكن لها قط إلا إزاء المآكل الحلوة.

كانت تتابع حركاته، وتميّز وقع خطواته على الدرج أو في الغرف المجاورة، وتصفّق بيديها عندما يدخل، ويستضيء وجهها الذي تغيّرت ملامحه بألق السعادة العميقة والشهوة.

كانت تحبّه بكل جسدها بكل نفسها، كلّ هذه النفس المسكينة، العاجزة، بكل قلبها، بكل قلبها المسكين، قلب الحيوان المعترف بالجميل.

حقاً كان ذلك صورة رائعة وساذجة للهوى البسيط، الهوى الجسدي، والمحتشم مع ذلك، كما وضعته الطبيعةُ في الكائنات قبل أن يعقّده الإنسان ويشوّهه بجميع لوينات المشاعر.

أما هو فسرعان ما تعب من هذه المخلوقة الجميلة المضطرمة، الخرساء. لم يكن يقضي قربها سوى بضع ساعات في النهار، معتقداً أنه يكفي أن يعطيها لياليه.

أخذت تتألم.

كانت تنتظره من الصباح إلى المساء، وعيناها محدّقتان في الساعة الجدارية، غير مبالية بوقت الطعام لأنه كان يتناول طعامه دائماً خارج البيت، في «كليرمون»، في «شاتيل غويون»، في رويايا»، أو في أي مكان آخر، لكي لا يعود إلى البيت.

هزلت. اختفى من ذهنها كلُّ تفكير آخر، كل شهوة أخرى، كل انتظار آخر، كل أمل آخر، غامض. وغدت الساعاتُ التي لا تراه فيها ساعات عذاب شديد. ولم يلبث أن صار ينام خارج البيت ويقضي أمسياته في الكازينو مع النساء فلا يعود إلا في ساعات النهار الأولى. كانت ترفض أن تأوي إلى سريرها قبل أن يعود وتظلُ ساكنة على كرسي وعيناها شاخصتان أبداً إلى العقارب النحاسية التي تدور وتدور بسيرها البطيء والمنتظم، حول ميناء الخزف الذي سُجّلت عليه الساعات.

كانت تسمع من بعيد خبب جواده، وتنتصب بوثبةٍ، فإذا دخل الغرفة، رفعت بحركة كمثل حركة الشبح، إصبعها نحو الساعة الجدارية، كأنها تريد أن تقول له: «انظرْكم تأخرتَ!» فأخذ يخاف أمام هذه البلهاء العاشقة والغَيْرى؛ كان يغضب كما تغضب الوحوش، وضربها ذات مساء.

استدُعيتُ. كانت تتخبّط، وهي تزعق، في أزمةٍ فظيعة من الألم والغضب والانفعال، وهل أدري؟ هل يمكننا أن نحزر ما الذي يجري في تلك الأدمغة المتخلفة؟

هدأتُها بحقن المورفين؛ ومنعتُ أن تعود إلى رؤية ذلك الرجل، لأنني أدركتُ أن الزواج سيؤدي بها حتماً إلى الموت.

حينئذٍ جنَّتْ! نعم، ياعزيزي، هذه البلهاء جنَّت. إنها تفكّر فيه دائماً، وهي تنتظره تنتظره النهار كله والليل كله، مستيقظة أو نائمة، في هذه اللحظة، ودون انقطاع.

وإذ رأيتُها تنحلُ، وإذ رأيتُ أن نظرتها العنيدة لا تتحولّ البتة عن ميناء الساعة، نزعتُ من المنزل جميع هذه الأجهزة التي تقيس الزمن. وهكذا حرمتُها من إمكان عدّ الساعات والبحث الذي لا ينتهي، في تذكّراتها المبهمة، عن اللحظة التي كان يعود فيها قديماً. ورجوتُ أن أقتل فيها، مع الزمن، الذكرى، وأن أطفئ ضياء الفكر الذي أشعلتُه بكثير من الجهد.

جربتُ ذات يوم هذه التجربة: قدّمت لها ساعتي. أخذتْها، وتطلّعت إليها زمناً؛ ثم أخذتْ تصرخ صراخاً مُفزعاً، وكأن رؤية هذه الآلة الصغيرة أيقظت فجأة ذاكرتها التي كانت تغفو.

إنها هزيلةٌ اليوم، هزيلةً هزالاً مخيفاً، بعينها الغائرتين واللامعتين. وهي تمشي باستمرار كالحيوانات في قفصها.

عملتُ على تشبيك النوافذ، ووضع حواجز عالية، وتثبيت المقاعد

بالأرضية لأحول بينها وبين النظر إلى الشارع إن عاد. أوه! ياللوالدين المسكينين! وياللحياة التي قضياها!

كنا قد وصلنا الهضبة؛ استدار الدكتور وقال لي: «انظرْ إلى «ريوم» من هنا»

كان منظر المدينة الكالحة كمنظر المدن القديمة. من الخلف يمتد، على مدى النظر، سهلٌ أخضر، مغطّى بالشجر، عامر بالقرى والمدن، وغارق في ضباب أزرق هفّاف يجعل الأفق فتّاناً. إلى يميني، على البعد، تتطاول جبالٌ عظيمةٌ مع سلسلة من القمم المدوّرة والمبتورة فجأة وكأنها قد بُترت بنصل السيف.

أخذ الدكتور يعدّد أسماءَ الديار والقمم، راوياً لي قصّة كلٍّ منها.

لكنني لم أكن أصغي، لم أكن أفكّر إلا في المجنونة، لم أكن أرى سواها. كانت تبدو كأنما تحلّق، وكأنها روح مغمّة، فوق هذه الديار الشاسعة.

وسألته فجأة:

والزوج، ماذا حلّ به؟

أجاب صديقي الذي دهش قليلاً، بعد تردّد:

– إنه يعيش في «روايا» بالمرتّب الذي أُجريَ له. إنه سعيدٌ وهو يعربد.

وبينما كنا نعود بخطاً وئيدة محزونين، وصامتين، مرت عربةٌ انكليزية بسرعة جاءت من خلفنا، يخبّ بها جواد أصيل.

أمسك الدكتور بذراعي وقال:

– ها هوذا.

لم أر سوى قبّعة من اللباد الرمادي، مائلة على أذنٍ، فوق كتفين عريضين، هاربة في سحابةٍ من الغبار.

الفهرس

١٩٩٧/١٠/١ط٣٠٠٠

طرحت قبل علم النفس التحليلي وتطرح معه بشكل أدق، مسألة علاقة العبقرية بالانحرافات العقلية التي تكاد تحاذي الجنون أحياناً. فجان جاك روسو لم يكن بدون شك متوازناً عقلياً، أما موباسان فقد بدت عليه أعراض الخلل العقلي منذ شبابه وما زال يتفاقم حتى فقد الوعي تماماً، فأُدخل إلى مصحٍ توفي فيه وقد تجاوز الأربعين بثلاث سنوات. والأمثلة من هذا النوع كثيرة جداً.

مفارقة موباسان أنه يجمع في القصة الواحدة بين مستوى فني رفيع وبين شخوصٍ تحركهم منعكسات مرضية ورؤى شاذة لا يمكننا أن نتصورها قبل أن نقرأها. مجموعتنا هذه مركزة حول – الخوف والموت– وما يبعثانه في النفس من مشاعر قاسية وإحباط وغثيان فثمة الهرب من الواقع، والانتحار أحياناً.

يجد القارىء في مقدمة الأستاذ صياح الجهيم للمجموعة تحليلاً موجزاً ودقيقاً لقصصها تدل كما جاء في المقدمة على أن موباسان يتميز بملاحظة مرهفة لتلونات الطبيعة وتبدلات المشاعر الإنسانية. ومما يسترعي الانتباه عنده، وبعد أن مضى على وفاته قرن كامل ونيف، ما تزال قصصه تستدعينا بأقوى مما كانت تستدعي معاصريه فهو بين القصاصين العالميين، في طليعتهم.

وتلك هي رسالة الفنان: أن يجعل ذوقنا أكثر إرهافاً، ونفسنا أدق تفاعلاً كل منا مع عالمه.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر
٧٥

في الأقطار العربية ما يعادل
٣٥٠ ل.س